الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

العدد ١٢٧ — ٩ ديسمبر سنة ١٩٣٥ — السنة الثالثة

Lundi-9-12-1935

3 me Année, No. 127.

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
أحمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

الرسالة

مجلة اسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة
م
٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك الأخرى
١٢٠ في العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الادارة

العـــدد ١٢٧ « القاهرة في يوم الاثنين ١٣ رمضان سنة ١٣٥٤ — ٩ ديسمبر سنة ١٩٣٥ » السنة الثالثة

فهرس العـــدد

صفحة		
١٩٦١	في الجمال	أحمد حسن الزيات ... ...
١٩٦٣	المجنوت	الأستاذ مصطفى صادق الرافعي
١٩٦٦	الصقالبة في الرواية العربية	الأستاذ محمد عبد الله عنان
١٩٦٩	مذهب الذرائع	الأستاذ زكي نجيب محمود .
١٩٧٢	قصـة المكروب ...	الدكتور أحمد زكي ... ...
١٩٧٦	نظرية النسبية الخصوصية	الدكتور اسماعيل أحمد أدهم ...
١٩٧٩	قصة الفتح بن خاقان ...	الأستاذ عبد الرحمن البرقوقي
١٩٨١	معركة عدوى	الفريق طه باشا الهاشمي ...
١٩٨٣	مؤتمر القلوب	الأستاذ السيد محمد زيادة ...
١٩٨٦	عويل الدم	جورج وغريس ... ...
١٩٨٧	أحلام وذكريات ...	الآنسة فردوس مصطفى ...
١٩٨٨	عجز التجارب (قصيدة)	الأستاذ عبد الرحمن شكرى
١٩٨٨	السجينة »	الأستاذ فخرى أبو السعود ..؟
١٩٨٩	أغنية بين يدى الشمس »	الأستاذ ابراهيم ابراهيم على...
١٩٨٩	حنين »	الأستاذ رفيق فاخورى ...
١٩٩٠	حروب طروادة (قصة)	الأستاذ دريني خشبة ... ...
١٩٩٣	كتاب عن المسألة الحبشية	
١٩٩٤	ذكرى غزوة بدر الكبرى	
١٩٩٤	كتاب (محمد) للأستاذ توفيق الحكيم	
١٩٩٤	الصقالبة في الرواية العربية . الانسان والكون	
١٩٩٥	شرعية الانتحار . معرض الفن الصيني	
١٩٩٦	كتاب التشريح المرضى والجنائي	الدكتور محمد الرافعي ...
١٩٩٧	لباب الآداب (كتاب)	الأستاذ محمد بك كرد على
١٩٩٨	تاريخ الاسلام السياسي	مؤرخ ... ...

في الجمـــال ...

— ٤ —

ذلك إجمال القول في الفن الصناعي المرتجَل؛ أما الفن الصناعي المنقول فالسر فيه أن يبعث في ذهنك فكرتين: فكرة عن الطبيعة المقلَّدة، وفكرة عن الفنان المقلِّد. فتماثيل فِدْياس، وصور رفائيل، تجمع بين الجمالين: جمالِ المثال في أصله، وجمالِ الفن في تقليده. كذلك في وصف مغرب الشمس لابن الرومي نجد الاعجاب الناشئ عن القوة والوفرة والذكاء موزعا بين الصورة الناطقة التي أبدعتها الطبيعة، وبين المحاكاة الصادقة التي أخرجتها القريحة

* * *

إن روعة الجمال الطبيعي آتية من ناحية الحرية في الطبيعة؛ وحرية الطبيعة هي قانونها العام، لاتقوم عظمتها إلا به، ولا تتجلى فخامتها إلا فيه؛ فالغيضة اللفّاء أجل مظهراً في النفس من الحديقة المنمنمة، وشلالات النيل أجمل منظراً في العين من النوافير المنظمة؛ لأن الجمال المطلق يملأ خيالك بالتأمل الحالم، وذهنك بالتفكير الرفيع، وشعورك بالطرب الباسط؛ ومظنة العبودية في الحى

أو فى الجماد تضيف إليه معنى من الحقارة والقبح يحطه و يشوهه . ولكن الجمال الصناعى لابدّ أن يتقيد بالقواعد و يتحدد بالأصول ؛ فاذا لم يكن الفنان من البراعة بحيث يخفى تلك القيود ، ويحجب هذه الحدود ، ويظهر السمة الدالة على الطبع المرسل والالهام الحر ، همدت فى فنه الحياة ، وخبا فى جماله السحر ، وضاقت فى عمله الفكرة

ليس الجمال فى الفن المعنوى أو الحسى أن تحاكى الطبيعة محاكاة الصدى ، وتمثلها تمثيل المرآة ، وتنقلها نقل الآلة ؛ تلك هى التبعية التى تنفى الذكاء ، والعبودية التى تسلب القوة ؛ إنما عظمة الفن أن يفوق الطبيعة ؛ و إنما براعة الفنان أن يزيد فى ترتيب صورها بالذكاء ، وفى تنويع تفاصيلها بالوفرة ، وفى توجيه مقاصدها بالعظمة ، وفى بيان تعبيرها بالحياة ، وفى سلطان تأثيرها بالقوة ، وفى حقيقة وقائعها بالسحر الموهم والوشى الخادع

انظر إلى تعاجيب الطبيعة وتهاويل الفلك ، من العواصف والصواعق والبراكين ، تجدها فى ذاتها جليلة رائعة ، ولكنك تجدها فى فن الشعراء والمصورين والمثَّالين أجل وأروع . لقد وضعوا فيها شهوات النفوس ، وسلطوا عليها تصادم الأهواء ، وصوروها للأذهان فى عالم من الآلهة الكَمَلَة فى قواها المختلفة ، تتنافس فى العجائب ، وتتصارع بالأهوال ، وتتفانى على اللذة . وسحر الفن الاغريقى فى صمته وفى نطقه قائم على تجميل الظواهر المروعة فى الطبيعة ، بالنوازع المتضاربة فى النفس

ومن المعلوم فى بداهة العقل أن يكون ما يقلده الفنان فى الطبيعة حقيقاً بالتقليد ، حتى يمكن الجمع بين جمال الشئ فى أصله ، و بين جماله فى نقله ؛ فالمصور الذى يرسم وضعاً من أوضاع الرأس ، أو معنى من معانى الوجه ، أو لوناً من ألوان الحياة ، يكون أسمى فى الفن من المصور الذى يتحامل على براعته حتى يصور أرنبا تكاد من دقة التقليد أن تلحظ وثبته وتعد و بره . والشاعر الذى يصف عاطفة من عواطف القلب ، أو ظاهرة من ظواهر الكون ، يكون أبلغ فى فنه من الشاعر الذى يجهد قريحته فى وصف حادثة من هَنَوات الحوادث لا تقوم فى ذاتها على فائدة ولا لذة

قد يكون الشيء المنقول فى حقيقته قبيحا ، ولكن صدق التعبير عنه ، ودقة التصوير فيه ، والتماس المنفعة منه ، تجعل تقليده جميلا ، كالوجه الشتيم يرسمه المصور المبدع بريشته ، والخلق الذميم يصوره الشاعر المفلق بقلمه ؛ والملهاة المسرحية موضوعها رذائل الناس ونقائص المجتمع ، ولكنها ارتفعت إلى أوج الفن الجميل بتحليلها العميق ، وتصويرها الدقيق ، وغايتها النبيلة . كذلك الحوادث المؤلمة والمناظر المحزنة والمواقف المؤثرة ليس فيها من الجمال شىء . ولكن استبطان الفنان لدخيلة البائس ، وتصويره الفاجعة ماثلة مثول الواقع ، و إعانته الحقيقة على التأثير بالجمل النفاذة ، والصور الأخاذة ، والظلال الرهيبة ، يجعل تقليدها من أجمل الأشياء ، ويضع المأساة من الفن موضع الواسطة من العقد

فأنت ترى أن التقليد لا يثير الاعجاب فى نفسك ، ولا يُشيع اللذة فى شعورك ، إلا باعتماده على الفن ؛ والفن لا يتحقق جماله إلا بالعظمة فى عمله ، والسعة فى وسائله ، والحكمة فى غايته ؛ فاذا قلدت أصوات الطبيعة من غير تأليف ولا تنسيق ولا معنى ، وأقمت شلالا من الماء والحجر تضارع به شلال أسوان ، وسردت بالكلام الموزون حادثة عادية من حوادث اليوم ، أخطأك الفن وانزوى عنك الجمال ؛ لأنك صغرت الطبيعة ، وحقرت الواقع ، وتعلقت بالتافه ، واستعنت بالمادة ، من غير قوة ولا ثروة ولا علة . ولو أنك رحت تستقرى مفاتن الجمال فى الطبيعة ، أو فى الفن ، أو فى الأثر الذى ينشأ من ائتلاف الطبيعة والفن ، لما وجدتها فى غير ما يعلن القوة والوفرة والذكاء مجتمعة أو متفرقة

ولعلك واجد ما يدعم هذه الفكرة عن الجمال فى قول (شيشرون) : « إن الطبيعة أبدعت الأشياء على صورة تجعل ما يكون منها جمّ المنفعة يكون كذلك جليل المكانة موفور الجمال . إن جلالة هذا المعبد نتيجة لازمة لمنفعته ؛ فلو أنك تخيلت (الكابتول)(١) قائماً فى السماء على هام السحب ، لما وجدت له جلالا فى نفسك ما لم يكن قيامه هنالك علة لسقوط المطر »

وهل المنفعة التى أرادها شيشرون فى صنع الطبيعة وفى نتاج الفن إلا الذكاء الذى أردناه فى الجمال وقصدنا به حكمة الغرض وانتظام الخطة ؟

احمد حسن الزيات

(١) الكابتول معبد وقلعة أقيا على هضبة من هضاب روما السبع

٣ - المجنون

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

وكنا في النَّدِيِّ ثلاثةً : أنا و ا . ش وس . ع ؛ وقد هيَّأت تدبيراً تَوافَقْنا عليه لتحريك هذين المجنونين وتدوين ما يجيء منهما . فلما أقبلا تحفَّينا بهما وألْطَفْناهما ، وقمنا ثلاثتُنا ببسطهما وإكرامهما ، حتى حسبا أن في كلمة « مجنون » معنى كلمة أمير أو أميرة . . . . ورأيتُ في عينيْ « نابغة القرن العشرين » - وهو أَعْيَنُ أَنْجَلُ (١) - ما لو ترجمتُه لما كانت العبارةُ عنه إلا أنه يعتقد أن له نفساً أنثى أعشقها أنا . . . . فكان مُسَدَّداً فَكِهَ اللسانِ تُسْتَمْلَحُ له النادرةُ وتُستظرفُ منه الحركة

ولما تمكن منه الغرور واحتاج الجنونُ كما يحتاج الجمالُ إلى كبريائه إذا حاطته الأعين - أدار بصره في المكان ثم قال : أفٍّ لكم ولما تصبرون عليه من هذا النديّ في ضوضائه ورعاعه وغوغائه . إن هؤلاء إلا أخلاطٌ وأوشابٌ وحثالة . هذا الجالسُ هناك . هذا الواقف هنالك . هذا المستوفز . هذان المتقابلان . هؤلاء المتجمِّعون . هذا كله خيالُ حقيقة في رأسي . ما هي ؟ ما هي ؟

هذا التصايحُ المنكَر . هذا الضربُ بحجارة النرد . هذه الزحمةُ التي انغمسنا فيها . هذا المكان الهائج من حولنا . هذا كله خيال حقيقة في رأسي . هي ، هي ، هي

فانزعج المجنون الآخر ، ووقع في تهاويل خياله . ونظر إلينا تدورُ عيناه ، وتوجَّس شرا ، ثم زاغ بصره إلى الباب ، واستوفز وجمع نفسه للقيام ؛ فلما رأى صاحبُه ما نزل به ، قهقه وأمعن في الضحك وقال : إنما خوّفتُه الصبيانَ والضرب ليثبت لكم أنه مجنون . . .

فَحَرِدَ الآخر واغتاظ وجعل يُتمتم بينه وبين نفسه .

قال «النابغة» ما كلامٌ تطنّ به طنينَ الذبابة أيها الخبيث ؟

قال : « مما حفظناه » أن من علامات الأحمق أنه إذا استُنْطِق تَجلَّفَ ، وإذا بكى خار ، وإذا ضحك نَهَق . . . كما فعلت أنت الساعةَ تقول هاء ، هوء ، هيء . . .

فتغير وجه « النابغة » ، ونظر إليه نظرةً منكَرة ، وهمَّ أن يقتحم عليه وقال : أيها المجنون . لماذا تضطرني إلى أن أجيبك جواب مجنون . . . لا نجوت إن نجوتَ مني

فأسرع ا . ش . وأمسك به واعترض من دونه س . ع .

وقال له : أنت بدأتَه والبادىء أظلم

قال : ولكن ويحه كيف قال هذا ؟ كيف لم يقل إلا هذا ؟ كيف لم يجد إلا هذا يقوله ؟ أنابغة القرن العشرين أحمق ، وقد أَوْحَدَهُ الله في القرن العشرين ؟ لهممتُ والله أن أكسر الذي فيه عيناه فما يقول إلا أني أحمق القرن العشرين

* * *

قلتُ : إن كان هذا هو الذي أغضبك منه ، ففي الحديث الشريف : ليس من أحدٍ إلا وفيه حَمْقَةٌ ، فبها يعيش . والحياة نفسها حماقة منظَّمة تنظيما عاقلا ؛ وما يُقبِل الانسان على شيء من لذاتها إلا وهو مقبلٌ على شيء من حماقاته ؛ وأمتعُ اللذة ما طاش فيه العقل وخرج من قانونه ؛ ولولا هذا الحمق في طبيعة الانسان لما احتمل طبيعةَ الحياة . أليس يُخيَّل إليك أن أكثرك غائب عن الدنيا وأقلك حاضرٌ فيها ، وأن يقظتك الحقيقية إنما هي في الحلم وما يشبه الحلم ، كأنك خُلقتَ في كوكب وهبطتَ إلى كوكبنا هذا ، فما فيك له ولا فيه لك إلا القليلُ يلتئم بعضُه ببعضه ، وأكثركما مُتنافر أو متناقض أو متراجع ؟

قال : بلى

قلت : فهذا القليل هو الحَمْقَةُ التي بها تعيش ، وهو أرضيةُ الأرض فيك . أما سماويةُ السماء فبعيدةٌ لا تحتملها طبيعة الأرض . ولهذا يعيشُ أهل الحقيقة عيشَ المجانين في رأي المغرورين الذين غرتهم الحياة الفانية ، أو المخدوعين الذين خدعتهم الظواهر الكاذبة ؛ فكلما أتوا عملاً من الأعمال السامية انتهى إلى الحمق معكوساً أو محوَّلاً أو معدولاً به . ولعل هذا أصحُّ تفسيرٍ للحديث الشريف : أكثر أهل الجنة البُلْه

قال المجنون الآخر : « مما حفظناه » . أكثر أهل الجنة البُلْه

فقال (النابغة) : المصيبةُ فيك أنك أنت هو أنت . ألا

(١) أي واسع العين أنجلها ، وقد مر وصفه في المقالة الأولى

فلتعلمْ أنك من بُلهاء البيمارستان لا من بُلْه الجنة

قلت : ثم إن الموت لا بد آتٍ على الناس جميعاً فيسلبهم كل ما نالوه من الدنيا ويُلحقُ من نال بمن لم ينل ؛ فمنذا الذى يُسرُّ بأن ينال مالا يبقى له إلا أن يكون سروره من حماقته ؛ ومنذ الذى يحزن على أن يفوته ما لا يبقى له إلا أن يكون حزنُه حماقةً أخرى ؟ وأى شيء فى الحب بعد أن ينقضى الحبُّ إلا أنه كان حماقةً ضَربَت فى الحواس كلها حتى ملأت النفس ؛ ثم ملأت النفس حتى فاضت على الزمن . ثم فاضت على الزمن حتى خبَّلت العاشق تخبيلاً لذيذاً تصغر فيه الأشياء وتكبر ويجعل الواقع فى النفس غير الواقع فى دنياها ؟ يُشبِّه كلُّ عاشقٍ حبيبته بالقمر : فهب القمر سمع هذا وفهمه وعَناه أن يجيب عنه ، فماذا عساه يقول إلا أن يعجب من هذا الحمق فى هذا التشبيه ؟

***

فهدأ (النابغـة) وسكن غضبُه وقال : صدقت ولهـذا أنا لا أشبه حبيبتى بالقمر .

قلت : فبماذا تشبّهها ؟

قال : لا أقول لك حتى أعلم بماذا تشبّه أنت حبيبتك

قلت : وأنا كذلك لا أشبهها بالقمر

قال : فبماذا تشبهها ؟ قلت : حتى أعلم بماذا تشبه أنت ...

قال : هذا لا يُرضى منك وأنت أستاذ (نابغة القرن العشرين) ولك حبائبُ كثيراتٌ عدد كتبك ، وقد أعجبتنى منهن تلك التى فى (أوراق الورد) وأظنك أحببتها فى شهر مايو من سنة ... من سنة ...

قال المجنون الآخر : من سنة ١٩٣٥ ؛ هأنذا قد نبهتك

قال : ياويلك ! إن (أوراق الورد) ظهرت من بضع سنين ، إنما أنت من بُلهاءَ البيمارستان لا من بُله أوراق الورد ... ماذا كنت أقولُ ؟

قال ا . ش . كنت تقول : هـذا لا يرضى منك ولك حبائب كثيرات .

قال : نعم لأنك إذا شبهت واحدة منهن بالقمر انتهى القمر وفرغ التشـبيه فيظل الأخْريَات بلا قمر ... ثم إن كلمة القمر لا تعجبنى ، فلونها أدكنُ مُغبرٌ(١) يضرب أحياناً الى السواد...

(١) الدكنة لون بين الحمرة والسواد

فاذا عشقتُ زنجيـةً فههنا محلُّ التشبيه بالقمر . . . أما البيضُ الرعابيب فتشبيههن بالقمر من فساد الذوق

قال س . ع : وللألفاظ ألوانٌ عندك ؟

قال : لو كنتَ نابغة لأبصرتَ فى داخلك أخْيِلةً من الجنة . ألم يقل أستاذُنا آنفاً عن (نابغة القرن العشرين) إنه هبط من كوكب الى كوكب ؟ ففى كوكبنا الأول يكون لنا سمْعٌ ملوّن وحسٌ ملوّن ، نسمع قرع الطبل أزرق ، ونفخ البوق أحمر ، ورنين النغم الحلو أخضر (١) ، والوجودُ كله صور ملونةٌ سواءٌ منه ما يُرى وما يُحس وما هو مستخفٍ وما هو ظاهر

ثم أومأ إلى المجنون الآخر وقال : واسمُ هـذا الأبله كلفظ الحبر لا أسمَعُه إلا أسود ...

***

وسكت « النابغة » وسكتنا ؛ فقال له س . ع . مالك لا تتكلم ؟ قال : لأنى أريد السكوت . قال : فلماذا تريد السكوت ؟ قال : لأنى لا أريد أن أتكلم ...

وتحرك فى نفسه الغيظ من المجنون الآخر فرمى بعينيه الفضاء ينظر اللاشيء وقال : إذا أصبح كلُّ النساء ذواتِ لحى أصبح هذا عاقلاً ... فدقَّ الآخر برجله دقاتٍ معدودة ؛ فثار (النابغة) وقال : من هذا يشتمنى ؟

قال س . ع . لم يشتمك أحد ، هذا خَفْقُ رِجلٍ على الأرض .

قال : بل شتمنى هذا الخبيث وسمى لا يَكْذِبنى أبداً ، وأنا رجل ظَنُونٌ أسيء الظن بكلِّ أحد ، وعلامةُ الحازم العاقل سوء ظنه بالناس . فهبه كما قلت قد خَفَق بنعله أو خَبط برجله فهو يعلم ما يعنى من ذلك وأنا أسمع مايعنيه . لقد طفح الشعرُ على قلبى فلا بد لى من هجائه ، ولا بد أن أذبحه ولو بالكلام ، فانى إذا هجوته رأيتُ دمه فى كلماتى ، وأريد أن أجعله كالعنز التى كانت عندنا وذبحناها

ثم انتزع قلم س . ع . وقال : هـذه هى السكين . ولـكن أسألك يا أستاذى أن تذبحه أنت بكلمتين وتصفَ له جنونه فقد

(١) هذا واقع وليس من الخيال فبعض الناس يسمعون الأصوات ويحسون الأشياء ملونة ؛ وعلماء الأمراض العصبية يعرفون هذا ويعللونه بأنه صور ذهنية قد لبسها مؤثر من المؤثرات فهو يصبغها بلونه . أفادنا هذه الفائدة دكتورنا محمد الرافعى

عَزَب عني الشعر . إن خفقة رجيل على الأرض تستطير الأرانب فزعاً فينفرن إلى أجحارهن ويتهاربن ، وما كانت أبيات الشعر في ذهني إلا أرانب . . .

أنتم لا تعرفون أن من كان حصيفاً تيبتاً مثلى كان دقيق الحس ، ومن كان قدماً غبياً مثل هذا كان بليد الحس غليظاً كثيفاً . فاذا أنا استشعرت البرد رأيتني قد سافرت الى القطب الشمالى ؛ أما هذا المجنون فهو إذا استشعر برداً سافر إلى عباءته أو لحافه . . . . إذ هو لا يعرف جغرافيا ولا يدرى ما طحاها

قلت : هذا منك أظرف من نادرة أبى الحارث . قال : وما نادرة أبى الحارث ؟ وهل هو نابغة ؟

قلت : جلس يتغدى مع الرشيد وعيسى بن جعفر ، فأتى بخوان عليه ثلاثة أرغفة ، فأكل أبو الحارث رغيفه قبلهما ، والرشيد ملك عظيم لا يأكل أكل الجائع وإنما هو التشعيث من هنا وهناك . فكان رغيفه لا يزال باقياً . فصاح أبو الحارث فجأة : ياغلام ، فرسى . ففزع الرشيد وقال : ويلك مالك ؟ قال : أريد أن أركب الى هذا الرغيف الذى بين يديك . .

قال (النابغة) : ولكن فرقاً بين أبى الحارث وبين (نابغة القرن العشرين) ، فان من العجائب أنى ربما نظرت الى الرجل وهو يأكل فأجد الشبع حتى كأنه يأكل ببطنى لا ببطنه . ولكن من العجائب أن هذا لا يتفق لى أبداً حين أكون جائعاً

أما هذا المجنون الذى أمامنا فربما أبصر الحمار على ظهره الحمل فيشعر كأن الحمل على ظهره هو لا على ظهر الحمار . .

قال الآخر : « مما حفظناه » أنه سرق لأعرابى حمار ، فقيل أسرق حمارك ؟ قال نعم وأحمد الله . فقيل له على ماذا تحمده ؟ قال على أنى لم أكن عليه حين سرق . فأنا إذا رأيت حمارا مثقل الظهر حمدت الله على أن الحمل لم يكن علىّ ، لا كما يقول هذا . ثم دق برجله دقات . .

فاستشاط (النابغة) وقال : أسمعتم كيف يقول إنى مجنون ، ثم لا يكتفى بهذا بل يقول إنى حمار على ظهره الحمل ؟

قلت : ينبغى أن تتكافأ وهذا لا يعيبك منه ولا يعيبه منك ، فان من تواضع النوابغ أن يشعروا ببؤس الحيوان ، فاذا شعروا ببؤسه دخلتهم الرقة له ، فاذا دخلتهم الرقة صار خيال الحمل حملا على قلوبهم الرقيقة ؛ وقد يصنعون أكثر من ذلك . حكى الجاحظ عن ثمامة قال : كان (نابغة) يأتى ساقية لنا سحراً فلا يزال يمشى مع دابتها ذاهباً وراجعاً فى شدة الحر أيام الحر ، وفى البرد أيام البرد ، فاذا أمسى توضأ وقال : اللهم اجعل لنا من هذا الهم فرجاً ومخرجاً ؛ فكان كذلك إلى أن مات

قال المجنون الآخر : « مما حفظناه » ثمرة الدنيا السرور ولا سرور للعقلاء ، فلو لم يكن هذا أعقل العقلاء لما محق سروره فى الدنيا هذا المحق الى أن مات غماً رحمه الله

***

قال س . ع . فاعف الآن عن صاحبك ولا تذبحه بالهجاء

قال : لقد ذكرتنى من نسيان ، وهذا المجنون يرى نسيانى من مرض عقلى ، وكان الوجه لو تهدّى الى الحقيقة أن يراه شذوذا فى العقل أى نبوغا عظيما كنبوغ ذلك الفيلسوف الذى أراد أن يعرف فى كم من الزمن تسلق البيضة ؛ فأخذ بيده الساعة وبيده الأخرى بيضة ثم نسى نسيان النبوغ فألقى الساعة فى الماء على النار ، وثبتت عينه على البيضة ينظر فيها على أنها هى الساعة . ولو قد رآه هذا الأبله لزعمه مجنونا كما يزعمنى ، فان المجانين يرون العقلاء مرضى بمواهبهم وأعمالهم التى يعملونها

وأنا فليس يهيجنى شىء ما تهيجنى كلمات ثلاث : أن يقال لى مجنون ، أو أبله ، أو أحمق . فمن رغب فى صحبتى فليتجنب هذه الثلاث كما يتجنب الكفر والكفر والكفر . . .

قال ا . ش . فاذا قيل لك مثلا . مثلا . أى على التمثيل : مغفل . . .

فحك رأسه قليلا وقال : لا ، هذه ليست من قدرى[1] . . .

قلت : فبعض الكلمات إذا قطعت عندك غيرت الحقائق ، كذلك القرن الذى قطع فرد البقرة فرساً ؟

قال وكيف كان ذلك ؟

قلت : زعموا أن أعرابياً خرج إخوته يشترون خيلاً ، فخرج معهم فجاء بعجل يقوده . فقيل له ما هذا ؟ قال فرس اشتريته . قالوا : يامائق هذه بقرة أما ترى قرنيها ؟

فرجع الى منزله فقطع قرنيها ثم قادها اليهم وقال لهم : قد أعدتها فرساً كما تريدون . . .

قال (النابغة) هذا غير بعيد ، فقد رأيتنا حين ذبحنا العنز

(1) نص عبارته (دى مش أدى) . . .

وكسرنا قرنيها أعدناها كلبة سوداء ، فتقذّرتها وعِفتُ لحمها ولم أطعم منها

ثم أومأ الى الآخر وقال : هذا لا يدرى ما نَطحَاها ، وهو مثل العَنز تحسب قرنيها للقتال والنِّطاح ومنهما تمسك للذبح . فقل فى هذا يا أستاذ (نابغة القرن العشرين)

قلت للآخر : أيرضيك أن أقول فى المعنى لا فيك أنت ... ؛ قال نعم ، فكتبت هذه الأبيات على ما يريد النابغة :

قل لعَنز نَاطحَاها ... لقتالٍ سلَّحَاها
مالها قد طَرَحَاها ... فى يَدَين ذَبحَاها

* * *

شِيمةٌ مني نحَاهَا ... عقلُ غِرٍ فلحَاهَا
ليس يدرى ماطحاها ... بل يرى شمسَ ضُحَاها
حَجَرًا مثلَ رَحَاهَا ... ويرى الليل محَاها
ظُلماً طالت لِحَاها

* * *

وسر (النابغة) وازدهى وجعل يقول طالت لحاها ، طالت لحاها ؛ وما كان هذا إلا السرور الأصغر ؛ أما سروره الأكبر فمجىءُ ساعى (البريد المستعجل) الى الندىّ وفى يده رسالة عنوانها : نابغة القرن العشرين فلان بندىّ كذا

وجعل الرجل يهتف بالعنوان يسأل عن صاحبه ؛ فتطاولت أعناق الناس ورفعوا أبصارهم ينظرون الى (نابغة القرن العشرين) وقد مدّ يده يتناول الرسالة وكأنه ملك من القدماء أسقط له كتابٌ بالفتح العظيم وبضم دولة الى دولته

ثم ترك الرسالة بين أصابعه يقلبها ولا يفضُّها ونحن فى دهشة من أمره ؛ فنظر فيها المجنون الآخر وقال له : هذا عجيب يا أخى كيف هذا ؟ إن هذا لا يصدَّق . إنك لم تُلْقِها فى صندوق البريد إلا منذ ساعة ... ...

(لها بقية) مصطفى صادق الرافعى

المبشرون : كتب الينا فاضل يذكر بعض سخافات المبشرين نقلها من أحد كتبهم وسألنا الرد عليهم فأبلغ الرد على هؤلاء تجنبهم وإهمال كل ما يكتبون إذ هم مصابون بجنون الفكرة الدينية ؛ ومثلهم فى كل ما يكتبونه عن الاسلام مثل رجل أمريكى (نابغة) ... يريد أن يقيم لك البرهان على أن الجمل العربى إنما هو مصنوع فى مصانع فورد ... ... الرافعى

٢ ـ الصقالبة فى الرواية العربية وفى الدولة الأندلسية

للأستاذ محمد عبد الله عنان

— ٣ —

ونلاحظ أنه بينما كان نفوذ الصقالبة يقوى ويشتد فى بلاط قرطبة وفى الدولة الأموية فى الأندلس ، إذا بنفوذ الصقالبة يغزو بلاطا إسلاميا آخر ودولة إسلامية أخرى هى الدولة الفاطمية ؛ ومما يدعو إلى التأمل أن يزدهر النفوذ الصقلبي فى البلاط الفاطمى فى نفس العصر ، أعنى فى أواسط القرن الرابع الهجرى ، وفى ظروف مماثلة ؛ وقد قامت الدولة الفاطمية فى المغرب بمؤازرة القبائل المغربية القوية ، واستأثر زعماؤها مدى حين بمناصب الثقة والنفوذ ؛ ولكن تطوراً وقع فى السياسة الفاطمية ؛ ومنذ عهد المعز لدين الله يغزو نفوذ الصقالبة البلاط الفاطمى ويغالب نفوذ المغاربة ؛ وقد كان جوهر الصقلى أعظم أعوان المعز وكبير قادته من أصل صقلبي ، وكان له فى الدولة وفى الجيش أعظم نفوذ ؛ وفى عهد العزيز سما نفوذ الصقالبة وساد فى القصر وفى الوزارة ؛ وبلغ ذروة قوته فى أوائل عهد الحاكم بأمر الله الذى تولى الملك صبياً وتولى الوصاية عليه صقلبي هو برجوان ؛ وفى عهد وصايته القصير سيطر الصقالبة على القصر والدولة ، واستأثر بمناصب النفوذ والحكم نفر من الفتيان الصقالبة مثل يانس وميسور وغيرهم ؛ ولكن الحاكم لم يلبث أن تخلص من هذا النفوذ الخطر بمقتل برجوان ونكبة الفتيان الصقالبة ، وبذلك انهار نفوذ الصقالبة فى البلاط الفاطمى [1]

وكان ذلك فى أواسط القرن الرابع وفى أواخره حيث كان يزدهر نفوذ الصقالبة فى بلاط قرطبة فى عهد الناصر حسبما بينا ، ثم فى عهد ولده الحكم المستنصر من بعده . ولما توفى الناصر كان نفوذ الصقالبة أشد ما يكون بسطة فى القصر وفى الحكومة ؛ وكان فتيان القصر الصقالبة وهم المعروفون بالخلفاء الأكابر أول من أخذ البيعة

(١ المقريزى (مصر) ج ٣ ص ١٧ و ١٨ وج ٤ ص ٦٨

للحكم المستنصر؛ وكان حاجب الحكم، جعفر بن عبد الرحمن الصقلبي أقوى وأعظم رجل في الدولة(1)؛ وكان الحرس الخلافي المكون من الفتيان الصقالبة سياج البيعة الخلافية وأبرز مظاهرها؛ وكان من وزراء الحكم أيضاً زياد ومحمد ابنا أفلح الصقلبي صاحب الخيل في عهد الناصر(2)؛ وفي عهد الحكم غدا الحرس الخلافي كل شيء في القصر، وغدا عصمة الخلافة والخليفة يسهر على سلامة عرشه وشخصه، ويحميه من المؤامرات والدسائس الخارجية؛ وكان أولئك الجند الصقالبة يعتدون بقوتهم وسلطانهم ويمرحون في العاصمة ويسيئون أحياناً إلى أهلها، وكان الحكم يخشى بأسهم ويغضي عن تصرفهم وسوء سلوكهم(3)؛ وكان عدد الحرس الخاص من الفتيان الصقالبة يبلغ زهاء ألف، بيد أنهم كانوا يتمتعون بوفرة في الوجاهة والثراء، ويملكون الضياع الشاسعة، ويسيطرون على كثير من الأتباع والحاشية(4)

وهكذا أصبح الحرس الخلافي أو الفتيان الصقالبة في بلاط قرطبة أصحاب الحول والقوة، وغدوا عاملا يحسب العرش حسابه، بل غدوا قبل بعيد حكما في مسألة العرش وولاية العهد، مثلما غدا الحرس التركي في بلاط بغداد. ولما توفي الحكم (سنة ٣٦٦هـ - ٩٧٦ م) كان الصقالبة هم سادة الموقف وأصحاب الكلمة في ولاية العرش والخلافة. وكانت زعامتهم بيد فائق النظامي صاحب البرد والطراز، وجوذر صاحب الصاغة والبيازرة، واليهما كان أيضاً أمر الغلمان الفحول خارج القصر. وكان رأى الصقالبة أن يصرف النظر عن تولية ولي العهد هشام بن الحكم، وهو يومئذ غلام في نحو الحادية عشرة حتى لا يفقدوا نفوذهم في ظل وصاية جديدة، وأن يولي الخلافة أخو الحكم المغيرة بن عبد الرحمن الناصر فيكون لهم بذلك فضل يمكنهم من توطيد نفوذهم وسلطانهم عليه؛ ولكن الحاجب جعفرا المصحفي أدرك مايضمره الصقالبة من وراء هذا المشروع ولم يقرهم على ائتمارهم بولي العهد؛ ونظم البيعة لهشام ولي العهد بمعاونة الوزير محمد بن أبي عامر؛ ودبر الاثنان مقتل المغيرة بن الناصر خشية مناوأته، وتولى ابن أبي

(١) نفح الطيب ج ١ ص ١٨٠ — البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥٨
(٢) نفح الطيب ج ١ ص ١٨١ — ابن الأبار في الحلة السيراء ص ١٥٤
(٣) Dozy; ibid II P. 255
(٤) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٧٧

عامر تنفيذ الجريمة، وبذا استقر هشام المؤيد في العرش الخلافي، وانهار مشروع الصقالبة؛ ودبت الوحشة على أثر ذلك بين الصقالبة والحاجب جعفر، فأخذ يتحين الفرصة لسحقهم؛ وكان ابن أبي عامر يستميل الصقالبة ويداريهم بادئ ذي بدء حتى تمكن نفوذه في القصر وفي الجيش؛ وعندئذ اتفق مع الحاجب على نكبة الصقالبة وتشريدهم، ولم يدخر في ذلك وسيلة ظاهرة أو مستترة حتى شرد زعماؤهم واستصفيت أموالهم وأخمدت شوكتهم، ونفي زعيمهم فائق إلى الجزائر الشرقية (جزائر البليار)(1)، وفي ذلك يقول شاعر معاصر هو سعيد الشنتريني:

أخرج من قصر امام الهدى ... كل فتى منبسط جائر
فمن رأينا منهم قال لا ... مساس قبل الناس بالشاكر
نخف ظهر الملك المرتضى ... قد خف من ثقلهم الظاهر
وسال ماء العلم من وجهه ... مذ مال عن حبلهم الخائر
فلازم الميدان في قصره ... مع الوزير الخير الطاهر

ولما سما أمر ابن أبي عامر وسحق كل خصومه ومنافسيه واستبد بالسلطة، رأى أن يتخذ من البربر بطانة له وخولا وأن يستعين بهم على العرب، فقدمهم في الحكومة والجيش، وعمل على تمزيق القبائل العربية؛ وكانت العصبية العربية قد اضمحلت منذ بعيد، فلم تلق السياسة الجديدة معارضة تذكر؛ وهكذا احتل البربر مكان الصقالبة في الالتفاف حول السلطة العليا والتمتع برعايتها، بيد أن الصقالبة لم يفقدوا كل نفوذ بعد، فقد استمر عدد كبير منهم يشغل وظائف الخاص بالقصر؛ ولما أنشأ ابن أبي عامر حاضرته المعروفة بالزاهرة، واتخذ سمة الملك وتسمى بالحاجب المنصور، عاد إلى اصطناع الصقالبة، واتخذ منهم إلى جانب البربر حاشية وبطانة؛ وحشد منهم كثيراً في الجيش(2)؛ والظاهر أن هذه الطائفة أعني الصقالبة كانت تتمتع بصفات وخلال خاصة تجعلها أداة لينة صالحة في يد السياسة القوية الحازمة، وإذا كان الصقالبة قد بدوا في أحيان كثيرة خطرا على الدولة والعرش فقد كان ذلك من أثر السياسة التي تمد لهم في السلطة وتسمح لهم باستغلالها، وتغضي عن صلفهم وتمردهم؛ وقد

(١) البيان المغرب ص ٢٨٠ و ٢٨١ – ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٧ – Dozy ; ibid ; II 207
(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٨

كانت هذه حال الصقالبة فى عهد الحكم المستنصر وحين وفاته ، فقد بلغ من سلطانهم ونفوذهم أن اعتزموا التصرف فى أمر العرش طبق أهوائهم ، ولولا أن سحقتهم يد ابن أبى عامر القوية لاستمر سلطانهم المطلق . بيد أن ابن أبى عامر لم يجد بأسا بعد أن أخمد شوكتهم وشرد زعماءهم من أن يستخدمهم أداة لتنفيذ إرادته ، بل لم يجد بأسا من أن يرفع بعضهم الى أسمى المناصب ، كما حدث فى شأن مولاه الفتى واضح الصقلبى ، فقد منحه حكم الولايات الجنوبية وولاه قيادة الجيش الذى بعثه لمحاربة أقوى وأخطر خصومه زيرى بن عطية البربرى حاكم المغرب الأقصى ؛ وقد كان لواضح هذا وعصبته الصقالبة شأن عظيم فيما تلا من الحوادث والخطوب

— ٤ —

ولم يستطع الصقالبة فى ظل حكومة المنصور القوية أن يتدخلوا فى شؤون الدولة أو يؤثروا فى سيرها وتوجيهها ؛ فلما توفى الحاجب المنصور (٣٩٣ هـ — ١٠٠٢ م) ، وانهارت الدولة العامرية بعدئذ بقليل ، رأى الصقالبة الفرصة سانحة للعمل ، فانضموا إلى الحزب الأموى الذى عمل لاسقاط الدولة العامرية وسحق البربر الذين آزروها ومكنوا لها ؛ ولما ظفر محمد بن هشام زعيم هـذا الحزب ببغيته واستولى على قرطبة وتلقب بالمهدى ، انضم اليه الفتى واضح وعصبته الصقالبة واتخذ واضحا لحجابته وانضم فريق آخر من الصقالبة بزعامة خيران العامرى وزميله عنبر إلى سليمان المستعين خصيم المهدى ومنافسه ، وجرت بين الفريقين مواقع جمة ، واستتب الأمر للمهدى ؛ ولكن الصقالبة لم يخلدوا إلى السكينة ورأوا صالحهم فى إبعاد المهدى عن العرش ، فتفاهم الصقالبة من الحزبين وائتمر واضح وخيران بالمهدى فقتله الصقالبة ، فى الحمام (سنة ٤٠٠ هـ) وأخرج واضح الخليفة المؤيد هشام المحجور عليه ، وكان سجينا بالقصر منذ أيام المنصور ، وأجلسه على العرش ؛ وتولى واضح حجابته ، واستأثر بكل رأى وسلطة ؛ وقبض على ناصية الأمور فى قرطبة مدى حين ؛ ولكن سليمان المستعين لم يلبث أن هاجم قرطبة فى جموعه البربر ثم دخلها رغم كل ما اتخذه له واضح من الأهبة لمقاومته ، وفتك جنده بالسكان أيما فتك ، واقتحموا مدينة الزهراء وخربوها (٤٠١ هـ) ؛ فمنذئذ رأى واضح السلامة فى خيانة المؤيد واللحاق بالمستعين ؛ ولكن الجند الصقالبة وقفوا على نيته فى الوقت المناسب فقتلوه ؛ واستمر الصقالبة فى الدفاع عن قرطبة وعن المؤيد وعرشه ، والمستعين يحاول استمالتهم عبثا ، واضطرمت الحرب بين الفريقين مدى حين ، وانتهت باستيلاء سليمان على قرطبة فى مناظر هائلة من السفك والعيث (٤٠٣ هـ) وانهار سلطان الصقالبة بانهيار عرش المؤيد ؛ وبدأ سلطان البربر ، واستأثروا بحكم الثغور والنواحى ، وانتثر عقد الخلافة وانقسمت الأندلس الى دويلات وإمارات صغيرة ، وبدأ عهد الطوائف

بيد أن الصقالبة لم ينسحبوا نهائيا من الميدان ، ولم يختفوا نهائيا كعامل يؤثر فى سير الحوادث فقد اجتمع فلهم حول زعيم منهم ، من صنائع الدولة العامرية ، هو خيران العامرى ؛ واستقر خيران بعصبته ومن لحق به من خصوم المستعين والبربر إلى المرية بعد أن استخلصها من يد البربر ؛ وفى الوقت نفسه عبر على بن حمود حاكم سبتة فى جيش من البربر الى الأندلس محاولا أن يشق له خلال الاضطراب طريقا ، وتفاهم مع خيران العامرى والصقالبة وتحالفا على محاربة المستعين ، ثم زحفا بجموعهما على قرطبة ، ونشبت بين الفريقين حرب رائعة هزم فيها سليمان وأسر ثم قتل مع أفراد أسرته ؛ وجلس على بن حمود على العرش وتلقب بالمتوكل (٤٠٧ هـ) . ولجأ فى الحال الى سياسة الأرهاب والشدة ، ولم يترك أى مجال أو سلطة للصقالبة ، فسخط عليه خيران وتركه ، وأظهر الخلاف عليه . وأثار المتوكل ببطشه وشدته زعماء العرب ، واشتدت عليه النقمة ، ولم يلبث أن قتله الصقالبة فى الحمام (أواخر سنة ٤٠٧ هـ) وبذلك استطاعوا أن يؤثروا فى سير الحوادث كرة أخرى

ولما توفى المتوكل خلفه أخوه القاسم بن حمود وتلقب بالمأمون ، وعدل عن سياسة الشدة إلى اللين والمسالمة ، واستمال خيران العامرى الذى استعصم بالمرية ، وأقطع زميله زهيرا العامرى ولاية جيان ؛ وكانت الحوادث تتطور بسرعة ، وكان الخلاف يضطرم فيما بين آل حمود ؛ فانتهز الزعماء العرب تلك الفرصة وتفاهموا مع الصقالبة ضد آل حمود والبربر ، واستخلصوا قرطبة من يد المتغلبين عليها ؛ بيد أن نجم الصقالبة كان بدأ بالأفول ، ولم يكن يسطع يومئذ إلا غرارا ؛ وكانت دولتهم قد انهارت فى الواقع وتفرقوا بين مختلف الصفوف والأحزاب ؛ وكانت آخر مظاهر سلطانهم أن تولوا الحجابة لادريس بن حمود الذى استقر فى مالقة وتلقب بالمتأيد بالله ، فتولى حجابته نجا الصقلبى مدى حين ، ولكن دون عصبية ظاهرة

وكان هـذا آخر العهد بتدخل الصقالبة فى سير الحوادث الأندلسـية بصورة بارزة . ومن ذلك الحين يختفون من ميـدان الشؤون الأندلسية كقوة فعالة لها أثرها الحاسم فى توجيه الحوادث ، ومن ذلك الحين يبزغ نجم البربر ؛ وتتحول المعركة الداخليـة الى نضـال مزدوج ، نضال ملوك الطوائف فيما بين أنفسهم ، ثم نضالهم ضد العدو المشترك أعنى أسبانيا النصرانية ؛ ثم يجىء دور البربر فى السـيادة المطلقة بسرعة ، فتنهار دول الطوائف الصغيرة تحت ضرباتهم القوية ، وتسقط الأندلس فى يد المرابطين ثم يفتتحها الموحدون ، فتستمر سيادة البربر عصراً آخر ؛ ثم تنهض مملكة غرناطة فى تلك الغمار والخطوب العصيبة فتسطع فى الأندلس حتى يحل الصراع الأخير .

تم البحث — محمد عبد الله عنان

(النقل ممنوع)

مذاهب الفلسفة

مذهب الذرائع

PRAGMATISM

للأستاذ زكى نجيب محمود

لقد لبثت الفلسفة دهراً طويلا تسبح فى سماء الفكر المجرد ، فلا تصغى بآذانها الى الحيـاة العملية التى تمج بأصدائها أرجاء الأرض جميعاً . ولا تحفل بالواقع الذى تراه الأبصـار إلا قليلا ، فقد قصرت مجهودها ـ فى الأعم الأغلب ـ على جوهر الأشياء فى ذاتها ، وأخذت تسائل: ما المـادة وما الروح وما مبعثهما ؟ ولـكنها باءت بعـد طول الـكدح والعناء بالفشل والاملاس ... حتى جاء الفكر الأمريكى الحديث الذى يقدس العمل ويمقت البحث النظرى المجدب العقيم ، وأراد أن ينحو بالفكر نحواً جديداً ، فلا يكون من شأنه كنه الشىء ومصدره ، بل نتيجته وعقباه . ولقـد كان أول من صاغ هذا المذهب وليام چيمس (١٨٤٢ ـ ١٩١٠) الذى اعترف أنه قد استمد أصوله وقواعده من أشتات قديمة . وأنّ له فضل الصياغة والتعبير . أما رسالته التى قصد إلى أدائها بمذهبه فهى فى أوجز عبارة : أن يتخذ الانسان من أفكاره وآرائه ذرائع يستعين بها على حفظ بقائه أولا ، ثم على السير بالحياة نحو السمو والـكمال ثانيا

إنه لمن الغفلة والشطط أن نؤتى هذه القوة العقلية فنبددها فى البحث عما وراء الطبيعة من قوى مما لا غنـاء فيه للانسان ولا رجاء ؛ إن العقل إنما خلق ليكون أداة للحياة ووسيلة لحفظها وكمالها ، فلينصرف الى أداء واجبه ، وليضرب فى معمعان الحياة العملية الواقعة ، فليست مهمته أن يصور بريشـته عالم الغيب المجهول ، الذى لا يكاد يربطه بحياة الانسان سبب من الاسباب ، وليكن مقياسه الذى يفصل به بين الحق والبـاطل هو مقدرة الفكرة المعينة على إنجاز أغراض الانسان فى حياته العملية ، فان تضاربت الآراء وتعارضت ، كان أحقها وأصدقها هو أنفعها وأجداها ، ذلك الذى تنهض التجربة العملية دليلا على فائدته . وكل شىء يؤثر فى الحياة تأثيرا منتجا يجب أن يكون فى اعتبارنا هو

الحقيقة ، بغض النظر عن مطابقته أو عدم مطابقته لما يخلقه الفكر المجرد من معايير ، إذ لا يُعَوّل مذهب الذرائع إلا على النتائج وحدها ؛ فان كان الرأى مثمراً نافعاً قبلناه حقيقة ، وإلا أسقطناه من حسابنا وهما باطلا

والواقع أن معظم النـاس يتبعون فى حياتهم العلمية أصول هذا المذهب ، فهم ينتقون لأنفسهم من الآراء مايعين على تحقيق أغراضهم التى يقصـدون اليها ، أو ما يعمل على رقى الانسانية وتقدم البشر بصفة عامة . خذ العقيدة فى الله مثلا ، فالأكثرية العظمى تأخذ بها لا لأن الدليل قاطع بوجوده ، (فذلك أبعـد عن متناول الدهماء) ولـكن لأنها ترى أن هذه العقيدة تبث فى حياة الناس روحا قوية ، وتفسح أمامهم فى الأمل الجميل الذى تزدهر به الحياة وتبتسم ، والذى لولاه لضقنا ذرعاً بفداحة عبئها . . فليس منا من لا يقيس الآراء بظروف عيشه ثم يختار منها أنسبها له وأفعلها فى أداء مهمته ؛ فسلوكنا العملىّ هو فى الواقع الذى يوجه أفكارنا ، وليست أفكارنا هى التى توجه أعمـالنا . ولقد قال موسولينى يوماً إنه يدين لوليـام جيمس بكثير من آرائه السياسية ، وإنه بتأثيره لا يحتكم فى سياسته الى نظريات العقل المجرد ، إنما يسلك من السبل ما يراه أقوم وأدنى انتاجا

وإن نيتشه ليذهب فى هذا الاتجاه إلى أقصاه ، فيقرر أن الباطل إذا كان وسـيلة ناجحة لحفظ الحياة كان خيرا من الحقيقة ؛ فبطلان الرأى لا يمنع قبوله ما دام عاملا من عوامل بقـاء الفرد وحفظ النوع ؛ فلرب أكذوبة أو أسطورة تدفع الحياة إلى الأمام بما تعجز عنه الحقيقة المجردة العارية . أنظر كيف تفعل الوطنية فى رأس الجندى فيطوح بنفسه بين براثن الموت ، ولو حكم عقله المجرد لما فعل ؛ بل انظر كم يبذل الآباء والأمهات من مجهود فى سبيل أبنائهم ، ولو استرشـدوا العقل وحده لآثروا أشخاصهم ولضنوا على الأبناء بأى بذل أو عطاء ، ولـكننا لحسن الطالع ذرائعيون بالفطرة ، فنعتنق من الآراء أحفظها للحياة ، ولولا ذلك لظلت الانسانية فى حيوانيتها الأولى لا تتقدم ولا تسير

ولا يقتصر الأمر فى ذلك على عامة الناس ، بل إن أرباب العلم أنفسهم ليأخذون بطائفة كبيرة من الآراء التى تعين على المضى فى بحثهم ، دون أن ينهض الدليل العقلى على صحة تلك الآراء التى اتخذوها أساساً لأبحاثهم ، فلا يدرى العلم ما الأثير وما الجاذبية وما المادة وما الطاقة وما الـكهرباء ، ولـكنه يفرضها لأنهـا تعينه على أداء مهمته ؛ وهذا بعينه ما يدعو اليه مذهب الذرائع ، فيكفى لأن تـكون تلك الآراء صحيحة أنها توجهنا فى حياتنا توجيها صحيحا ، فلا يعنينا فى كثير أو قليل أن نعلم ما هى الـكهرباء فى ذاتها ما دمنا نستطيع أن نستخدمها ، فحسبنا من معناها آثارها ، وليكن معنى الـكهرباء هو ما تعمله وما تؤديه ، وعلى هذا النحو يمكننا أن نتخلص من أعوص المسائل الفكرية التى أرهقت الفلسفة بغير طائل ؛ فلندع جانبا كل بحث عن ماهية القوة أو ماهية المادة أو ماهية الله وما الى ذلك ، وحسبنا منها أن نبحث عن الآثار التى تنشأ عنها فى حياتنا اليومية العملية ، فان لم يكن لها آثار فيما نصادف من تجارب وجب اعتبارها ألفاظا جوفاء لا تحمل من المعنى شيئاً

وهكذا يريد مذهب الذرائع أن تـكون كل فـكرة وسـيلة لسلوك عملى معين ، أعنى أن تـكون الفكرة تصميما لعمل يقوم به الانسان ، أو لا تـكون على الاطلاق ؛ فالفـكرة التى تحيا فى الذهن وحده ليست جديرة بهـذا الاسم ، ولا خير فيها إلا ان كانت مرشدا للانسان فى حياته وسلوكه ، فيـكون مثلها مثل اللون الأحمر أو الأخضر على السكة الحديدية يراهما سائق القطار فيوجهان تصرفه توجيها معينا ، أو كالعلامات الموسيقية كل قيمتها فى توجيه حركات الموسيقىّ ، فان لم تُفد ذلك كانت عبثا صبيانيا لا يُعنى شيئاً ؛ فيجب على هذا الأساس أن تـكون كل فـكرة فى أذهاننا مرشداً عملياً يرسم لنا سلوكنا ويضع لنا القواعد التى ينبغى أن نسـير على مقتضاها فى حياتنا اليومية . أو بمعنى آخر تـكون أساساً لعادة معينة . ففـكرة الجاذبيـة مثلا معناها محصور فى تـكوين عادات معينة أستعين بها فى سلوكى ، فأعرف كيف أنظم علاقاتى بالأشـياء تنظيما ملائما ، فأحمل كوب المـاء مثلا وفمه الى أعلى حتى لا ينسكب المـاء بفعل الجاذبية ؛ وأمشى معتدل القامة خشية السقوط بفعل الجاذبية ، وأشيد مسكنى مستقيم الجدر لئلا ينهار بفعل الجاذبية ، وهلم جرا . أما إن كانت حياتى لا تتأثر بهذه الفـكرة ، وكنت لا أصادف لها آثارا فيما أصادف من تجارب ، كانت فى اعتبارى وهما وخطأ ، بغض النظر عن حقيقة وجودها فى العالم الخارجى أو عدم وجودها ؛ فالرأى الصحيح هو ما ييسر لى سبيل الحياة ويعمل على توفيقها

ونجاحها ، والرأى الخاطئ هو ما يفعل عكس ذلك ، أو ما لا أرى له أثراً فى الحياة

وظاهر أن نظرية التطور تؤيد هذا المذهب وتدعمه ، لأن العقل عندها ليس إلا عضواً كسائر الأعضاء يتذرع به الانسان فى تنازع البقاء ، وأنه لو لم يكن العقل أداة من أدوات البقاء لما وجد أصلا ؛ وإذن فالفكرة التى تنشأ فيه لا تكون صادقة بمقدار مماثلتها للحقيقة الواقعة فى الخارج ، كلا ، بل مقياس صدقها هو فى مقدرتها على إجابة الظروف المحيطة بنا على النحو الذى يمكن لنا فى البقاء . ولتوضيح ذلك نقول إنه من المعلوم أن الأشياء الخارجية فى ذاتها ليس لها ألوان ، إنما الألوان من صنع أعيننا ، ولكنى ما دمت أستطيع بفكرة اللون التى فى ذهنى (وإن لم تكن موجودة فى الخارج) أن أميز الأشياء فأعرف التفاحة الناضجة مثلا باحمرارها ؛ والفجة باخضرارها ، ففكرة اللون صحيحة صادقة . كذلك قل فى الصوت ، فليس للأصوات وجود فى الخارج ، إنما هى أمواج تقصر حيناً وتطول حيناً ، حتى إذا ماقرعت الأذن ، ترجمتها هذه بما نعهد من أصوات ، ولكن ماذا يعنينى من عدم مماثلة فكرة الصوت فى ذهنى للأمواج الخارجية فى الهواء ، ما دمت أعرف أن هذا الصوت المعين يدل على سيارة قادمة فأنجو بحياتى من الخطر ؟ إن فكرة الصوت حقيقية ما دامت تعمل على نجاح الحياة وبقائها ... إن الحياة كما يعرفها سبنسر هى ملاءمة حالات الانسان الداخلية بالظروف الخارجية ، وإذن فالعقل الصالح للحياة هو ذلك الذى يدرك اختلاف الظروف الخارجية لنعدل من سلوكنا بما يلائم الموقف الجديد ، وليس يعنينا بعد ذلك فى كثير ولا قليل أن تكون الصورة الذهنية التى رسمها لنا العقل من الأشياء الخارجية ، مطابقة لأصلها أو مشوهة محرفة ، فالحقيقة العليا فى الوجود هى الاحتفاظ بالبقاء أولا ، ثم الارتفاع بالحياة نحو الكمال . فكل ما يؤدى الى ذلك هو حق صريح . وفى ذلك يقول « ديوى » العالم الامريكى المعروف : إن الفكر أداة لترقية الحياة وليس وسيلة الى معرفة الأشياء فى ذاتها . ويقول «شلر» : إن الحقيقة هى ما تخدم الانسان وحده . . وكلا الرجلين من دعاة هذا المذهب

ونحن نجمل فيما يلى ثلاثة الشروط التى يضعها مذهب الذرائع لصدق فكرة ما :

١ ـ فأولا يجب أن يكون للفكرة قيمة فورية Cash-value ، ومعناها أن الانسان يجب أن يشاهد صحة رأيه أو خطأه فى تجربته العملية ، فان جاءت هذه التجربة العملية موافقة للفكرة كانت الفكرة صحيحة وإلا فهى خاطئة

٢ ـ وثانياً أن تكون الفكرة منسجمة مع سائر أفكارى وآرائى . فلا يكفى أن تكون كل فكرة صحيحة على حدة بالنسبة لقيمتها الفورية ، ولكنها يجب كذلك ألا تناقض الأفكار الأخرى . فلا يجوز مثلا أن أفرض نوعاً من الذرات فى علم الطبيعة ، ثم أفرض نوعاً آخر منها فى علم الكيمياء ، حتى ولو كان كل منهما صحيحاً فى ميدانه الخاص — فاذا وجدنا أمامنا فكرتين عن شىء ما ، كل منهما صحيح بالنسبة لقيمته الفورية ، وجب أن نختار إحداهما على أساس البساطة ، فأبسط الفكرتين أصحهما ؛ فمثلا لما أتى كوبرنيك برأيه الجديد عن الكون يعارض به رأى بطليموس القديم ، كانت كلتا الفكرتين صادقة إذا قيستا إلى ما ينجم عنهما من النتائج العملية فى حياة الناس ، ولكن ما دامت فكرة كوبرنيك أقل تعقيداً من الأولى ، كان لزاماً أن يقع عليها اختيارنا

٣ ـ ولا بد للفكرة بعد هذا وهذا أن تطمئن لها نفس الانسان وترضى ما دام ذلك لا يتعارض مع القيمة العملية . فالعقيدة الدينية مثلا ، على الرغم من أن ليس لها قيمة فورية فى حياتنا إلا بمقدار ضئيل ، إلا أنها واجبة ، لأنها تخلع على حياتى صبغة من التفاؤل ، وهى فى الوقت نفسه تنسجم مع الأفكار الأخرى ولا تتعارض معها . ومعنى ذلك أنه اذا تساوت ظروف فكرتين ، ثم كانت إحداهما تبعث التفاؤل والأخرى تبعث التشاؤم ، كانت الأولى بالنسبة لنا أصدق وأصح . فالمؤمن والملحد كلاهما لا تؤثر عقيدته فى شؤون حياته ! ولكن الأول متفائل يرجو الآخرة ، والثانى متشائم لا يرجو شيئاً ؛ إذن فالايمان أصدق من الالحاد وأحق ، لأنه أجدى على الانسان وأنفع

تلك هى الحقيقة فى عرف هذا المذهب ؛ ولقد يعترض بحق أنها قد تؤدى الى التنافر بين الناس ، والى عدم انسجامهم فى سلك المجتمع ، لأن كل فرد سينتقى لنفسه الرأى الذى ينفعه بغض النظر عما يتخذه سواه من آراء ؛ وإذن ففلسفة الانسان ستعتمد على

قصــــة المــكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور أحمد زكي

وكيل كلية العلوم

كوخ KOCH

رابع غزاة المكروب

طبيب القرية الذى ضجر بالطب لجهله أسباب الداء ثم ادعائه علاجه ؛ الذى شغله البحث فى أصول الأمراض عن مداواة أربابها ؛ الذى حقق أحلام بستور وأثبت أن المكروب ينتج الأمراض ، وأن لكل مرض مكروباً يخصه ، ويخصه وحده ؛ الذى علم الدنيا كيف تصطاد النوع الواحد من المكروبات ، وتصطاده خالصا خاليا من الأخلاط ؛ الذى كشف مكروب الجمرة الخبيثة ، قاتلة الماشية والانسان ، ومكروب السل قاتل الانسان والحيوان ؛ الرجل الذى كشف مكروب الكوليرا على أرض مصر فى أجسام ضحاياها . البطل الذى نزل بساحات الموت فأظلته فيها أرفع بنوده ، وقاتلته على أرضها أفتك جنوده ، فأسر منها على هواه ، وخرج عنها سالما قد أخطأته سهامها قضاء وقدراً

المترجم

— ٣ —

كان كوخ مستقرّ النفس ، بارد العاطفة ؛ فلما نجا من هذه المخاطر بسلام ، وأصاب بها ما أمّل من نجاح ، لم يَدُرْ بخلده أنه أصبح فى عداد الأبطال ، ولم يخطر بباله أن ينشر أبحاثه فى الناس . واليوم إذا أنجز الرجل الباحث عملا بارعاً كهذا ، وكشف عن أسرار لها مثل هذه الخطورة ، استحال عليه أن يَعقد لسانه فلا يتحدث بها

وظل يسخّر نفسه فى العمل تسخيراً ، ويذلها فيه تذليلا ، وهو فى ذلك ساكت صامت ، حتى ليكاد المرء يتهم هذا الطبيب الريفىّ الألمانى العبقرىّ بأنه لم يدرك مقدار الجمال والخطر الذى كان فى تلك التجارب التى أجراها وحيداً فى عزلته وانزوائه

نعم تابع العمل وصابره ، فلا بد له أن يعلم فوق الذى علمه ؛ فأخذ يحقن الخنازير الغينية والأرانب ، والشياه أخيراً ، بذلك السائل ذى المظهر الطاهر والمخبر القاتل من قطراته العالقة . ولم تكد تدخل هذه الآلاف القليلة من المكروب إلى دم هذه الحيوانات حتى يتضاعف عددها بلايين المرات بسرعة واحدة ، وبقطاعة واحدة ، فى الفأر الصغير والشاة الكبيرة على السواء ؛ ولا تمضى ساعات حتى تعج بها أنسجة كانت سليمة تزدحم فى الشرايين الصغيرة والأوردة الرفيعة حتى تختنق بها ، وحتى يستحيل الدم الأحمر القانى إلى دم رهيب أسود - فتنفُق الشياه ، وتفنى الخنازير والأرانب

كان كوخ فى الأطباء واحدا من سوادٍ كثير ، فلم يكن له اسم ، ولم يكن لحاله ذكر ، ولكنه فارق هذا السواد بغتة ، وارتفع مُصعِداً إلى صفوف الأمجاد الخالدين من الباحثين ؛ وكان كلما مهر فى اصطياد المكروب ساءت عنايته بمرضاه بقدر ذلك ؛ صاحت أطفالٌ رُضّعٌ فى ضياع بعيدة ، ولكن الطبيب لم يحضر ؛ واحتدّ الألم فى أضراس فلاحين ، فاصطبروا على أوجاعهم ساعات مُضنيات ، ولكن دون جدوى ؛ واضطُرّ كوخ أخيراً أن يحول نصيباً من مرضاه على طبيب آخر ؛ وقل حظ زوجته من رؤيته وزاد همها ، وودّت اليه ألا يخرج إلى مرضاه وبه رائحة كيميائياته وحيواناته . أما هو فلم تصله شكوى زوجه ، ولا صوت مرضاه ، فلو أنهم وهم القريبون منه صاحوا له من وراء النصف الأبعد للقمر ما زادوا ولا نقصوا فى اسماعهم اياه - ذلك أن قضية خفية جديدة ساورت رأسه ، وملكت لبه ، وأسهرته الليالى ، قال لنفسه :

هذه البشلات تموت وشيكا على قطعة الزجاج تحت المجهر ،

مزاجه وظروفه ، ولكننا نسارع فنقول إن مذهب الذرائع قد أحس فى نفسه بهذا النقص ، فحاول أن يوفق بين قواعده وبين مصلحة الجماعة لا الفرد ، فقرر أن الرأى الصحيح هو الذى يكون له فائدة عملية لأكبر عدد ممكن من الناس ، بل ويحسن أن تشمل نتائجه النافعة الانسانية بأسرها ، وإذن فلا ينبغى أن نحكم على رأى بالصواب أو بالخطأ إلا بعد تجربة اجتماعية طويلة الأمد . ولكن يؤخذ على مذهب الذرائع وجوه أخرى من النقص نرجو أن نعرضها فى مقال تال

زكى نجيب محمود

فأنى لها وهى بهذا الضعف أن تنتقل فى الطبيعة من حيوان مريض بالجمرة إلى حيوان جدّ سليم ؟

وكان فلاحو أوربا والبيطريون فيها يؤمنون بخرافات غريبة عن أسباب هذا المرض ، وعن تلك القوة الخفية لهذا الوباء ، وقد أُصلِت كالسيف فوق رقاب أغنامهم وأبقارهم لا يدرون متى يهبط عليها بالقتل المروع الذريع . أما هذه البشلات الصغيرة الضئيلة التى لا يبلغ طول الواحدة منها جزءا من ألف من المليمتر ، فلن يتصور عاقل أنها سبب هذا المرض الفظيع

قال البقارون والغنامون لكوخ : « ياسيدنا الدكتور ، هب أن مكروباتك الصغيرة تقتل أبقارنا وأغنامنا ، فقل لنا بالله إن كان هذا حقاً ، كيف أن القطيع يكون سليما فى مرتع ، يأكل ويشرب ، ويثب ويلعب ، فاذا نقلناه إلى مرتع آخر ، كثير العشب ، وافر النعمة ، امتنع أكله ، وذهب لعبه ، وتساقطت وحداته ، وماتت سريعاً كأنها الذباب »

كان كوخ يعلم أن هذه الوقائع حقا لا كذب فيها ، كان يعلم أن فى أوڤرن Auvergne بفرنسا جبالاً خضراء لا تذهب اليها قطعان الأغنام حتى يأخذها الموت واحدة واحدة ، أو عشرة عشرة ، حتى ومائة مائة ، بسبب هذا الداء الأسود داء الجمرة ؛ واجتمع الفلاحون حول نيرانهم فى ليالى الشتاء الباردة وأخذوا يتهامسون : « إن حقولنا ملعونة مسكونة »

وحار كوخ فى أمره ـ وكيف تقوى هذه البشلات الدقيقة على العيش سنوات عديدة فى مثل هذا الشتاء ، فوق هذه الحقول ، وعلى تلك الجبال ؟ كيف يكون هذا ؟ وهو حين أخذ شيئاً من طحال فأر وبىء ، ونشره على شريحة من الزجاج ، وأخذ ينظر اليه من المجهر ، وجد المكروب قد عجز عن الحياة ، فانبهمت حدوده ، وانتشر جرمه ، واختفت صورته اختفاء ؛ نعم كيف يكون ، وهو لما وضع من بعد هذا على المكروب فوق شريحة الزجاج سائلا من عين ثور ، وهو نعم الغذاء الطيب ، لم ينم المكروب ، لم يتكاثر ، وهل تتكاثر الأموات ؟ ثم هو لما جفف هذا الدم الوبىء ، وحقنه فى فئران ، ظلت فى أقفاصها تلهو وتمرح ناعمة بالحياة ؛ إذن هذه المكروبات ماتت ؛ نعم ماتت هذه المكروبات التى كانت تقتل الشاة السمينة والبقرة الضخمة الكبيرة على السواء

وتساءل كوخ : « هذه المكروبات تموت على زجاجاتى النظيفة اللامعة فى يومين اثنين ، فكيف استطاعت أن تواصل الحياة على الحقول زماناً طويلا ؟ »

وذات يوم وقع بصره على حَدَث غريب تحت مجهره ـ تحول عجيب أدّى به إلى حل الطلسم الذى أعجزه . وجلس كوخ على كرسيه بعمله الصغير فى بروسيا الشرقية وكشف السر المخبوء فى حقول فرنسا وجبالها ؛ وحكاية ذلك أنه جاء بقطرة من قطراته العالقة ، وهى حبيسةٌ فى نقرتها الضيقة من شريحة الزجاج ، وتركها فى مدفأ درجة حرارته كدرجة جسم الفأر ، وخلفها هناك أربعا وعشرين ساعة ، فلما عاد قال : « لابد أن يكون المكروب قد نما فى القطرة واستطال خيوطاً طويلة كطول تلك التى تنمو فى أجسام الفئران » . ونظر فى المكرسكوب فوجد غير الذى أمّله . وجد أن الخيوط بعد أن استكملت طولها ، أخذت حدودها تنبهم ، وتنقط الخيط بأجسام بيضاوية لمت كحبات الزجاج ، وانتظمت على طوله كعقد اللؤلؤ ، برَق واستقام

استاء كوخ أول الأمر ، فسخط ولعن ، وحسب أن غريباً من المكروب دخل إلى مكروبه فأفسده ، ولكنه لما أعاد النظرة وجد حُسبانه الأول خاطئاً ، فالحبات اللامعة كانت فى داخل خيوط المكروب ، وهذه الخيوط نفسها هى التى تحولت إلى تلك الحبات . وجفف كوخ قطرته العالقة ، وحفظ ما بقى منها على الزجاج شهراً أو بعض شهر . ثم شاء القدر أن يعود فينظر اليها من خلال عدسته ، فوجد العقود لا تزال على لمعانها ؛ فخطر له أن يُجرى شيئاً من التجارب عليها . فأتى بقطرة صافية من عين ثور ، فأسقطها على تلك المكروبات التى استحالت عقودا ، وأخذ ينظر اليها فاذا بالحبّات تنمو فتصير إلى بشلات ، ثم إلى خيوط طويلة مرة أخرى . عام رأس كوخ اختلاطا واندهاشاً

قال : « إن هذه الحبات البارقة الغريبة قد عادت فاستحالت بشلات تارة أخرى ، فهذه بذور المكروب ، صوره الأمتن التى تصمد للحر الشديد والبرد القارص والجفاف القاتل ...... لا بد

أن المكروب على هذه الصورة يستطيع البقاء طويلا فى الحقول ، لا بد أن البشلات تستحيل إلى هذه البذور »

وقام كوخ عندئذ بجملة من التجارب الدقيقة البارعة ، أجراها ليمتحن صحة ظنه فى هذه البذور ، فاستخرج طحالات من فئران محورة ، استخرجها الآن بحذق ظاهر بعد الخبرة والمران ، ورفع هذه الأطحلة ، وفيها الموت ، على مشارط وعلاقط طهرت فى النار ، واحتاط ما استطاع الحيطة ألا تمسها مكروبات من التى تسبح على ضلال فى الهواء ، وحفظها يوميا فى درجة حرارة كالتى لجسم الفأر . فلم يكذب ظنه ، فخيوط المكروب استحالت الى حبات من البذور بارقة كالزجاج ، وتلا هذه بتجارب عديدة حبسته طويلا فى حجرته الصغيرة القذرة ، خرج منها على أن هذه البذور تبقى حية أشهراً كثيرة ، وأنها من بعد ذلك تنفقص على التو عن تلك البشلات القاتلة إذا هى وضعت فى قطرة من سائل عين ثور ، أو إذا هى أدخلت على فلقة خشب فى قاعدة ذنب فأر

قال كوخ : « إن هذه البزور لا تتكون فى حيوان وهو حى أبدا ، وإنما تظهر فيه بعد وفاته إذا احتُفظ بجسمه حارا » . وأثبت ذلك اثباتاً جميلا بأن وضع أطحلة وبيئة فى ثلاجة ، ثم عاد اليها بعد أيام فأخذ منها وحقن الفئران ، فلم يصبها سوء ، فكأنما حقن فيها لحماً طازجاً سليما

وكان العام عام ١٨٧٦ ، وكان كوخ قد بلغ الرابعة والثلاثين فخرج لأول مرة من عُشّه ، من قرية فُلِشْتَين Wollsttein ليخبر الدنيا فى شىء من الفأفأة ، أنه قد ثبت ثبوتاً قاطعاً بعد طول الشك أن المكروبات أسباب الأدواء . لبس كوخ أفخر ثيابه ، ووضع على عينيه نظاراته وقد تأطر الذهب حولها ، وحزم مجهره ، وعددا من القطرات المالقة فى محابسها من الزجاج وقد تنغشت بمكروب الجمرة القاتل ، وأضاف إلى متاعه قفصاً أخذ يهتز ببضع عشرات من الفئران البيض الصحيحة ، وركب القطار ووجهته بلدة برسلاوة Breslau ليعرض فيها مكروب الجمرة الذى كشفه ، وليبين للأشهاد كيف يقتل هذا المكروب فئرانه ، وكيف أنه يستحيل تلك الاستحالة الغريبة فيصير عقوداً كالسُّبَح — وأراد بخاصة أن يطلع الأستاذ كُون Cohn على كل هذا ، وهو أستاذ النبات بجامعة برسلاوة ، وكان يكتب أحياناً الى كوخ مشجعاً حامداً

أعجب الأستاذ كون بتجارب كوخ التى أجراها وحيداً لا يسمع به أحد ، وعلم أنها ذات خطر كبير لم يفطن له كوخ نفسه ، وتصور فى ابتسام وخبث ما يكون من أثرها فى نفوس جهابذة الجامعة وأعلامها ، وهم ماهم من رفعة القدر وشيوع الذكر ، وكوخ هو ماهو من الضعة والخمول ، فبعث اليهم يدعوهم لحضور الليلة الأولى للمعرض الذى يقيمه طبيب القرية الصغير

— ٤ —

ولبوا الدعوة ، نعم لبوها ليستمعوا إلى هذا الذى جاء من أقصى الريف يحدثهم عن العلم ؛ ولعلهم جاءوا رعاية لحرمة الأستاذ الشيخ كون . ولقيهم كوخ ، ولم يحاضرهم فى الذى أتى له ، فلم يكن قط ممن يحسن صناعة الكلام . انعقد لسانه ، ولكن يده انطلقت ثلاثة أيام ولياليها ترى هؤلاء السفسطائيين ما كان من أبحاثه طوال تلك السنين ، وما كان فيها من تلمس فى الظلام ، وتحسس فى دياجير المجهول ، وما كان فيها من عثرات تبعتها نهضات ، ومن نهضات تلتها عثرات ؛ فلم ينزل أحد من كبريائه ، ولم يهدئ من ادعائه ، نزولَ هؤلاء الجهابذة وهدوءهم ، وقد كانوا أتوا فى كثرتهم يستمعون لرجلنا القليل ، وقد كانوا طامنوا أنفسهم على التسامح ، وألا يأخذوا عليه المآخذ ، بل يدعونه يُرسل القول ارسالا ، فما عند مثله يطالب الجدل ، ولا من هم فى منزلته يثار النقاش . ولم يجادل كوخ قط ولم يتفيهق قط ، ولم يحلم الأحلام ، ولم ينطق عند الغد بصنوف النبوءات ، وإنما ظل يضرب فِلَق الخشب فى ذيول الفئران فكانت كالسهام مسرعة ودقة ، وفتح أساتذة البثلجة Pathology (1) عيونهم وسعها لما رأوه يتناول تلك البشلات والبزور والمكرسكوب بيد صَناع لا تكون لعالم إلا فى ستّينه . كان انتصاراً رائعاً روعة الصباح الضاحى

وكان من بين هؤلاء الأساتذة الأستاذ كون هايم Cohnkeim وكان من أمهر علماء أوربا فى دراسة الأمراض ، فلم يستطع صبرا على الذى سمع ورأى ، وخرج ثائراً من صالة العرض وذهب إلى

(١) علم الأمراض

معمله واندفع على التو الى حيث يعمل الشباب من مساعديه فى أبحاثه ، فصاح فيهم : « أبنائى ، دعوا ما بأيديكم وانصرفوا فاستمعوا الى الدكتور كوخ ، فان هذا الرجل كشف كشفاً عظيما » واسترجع الأستاذ أنفاسه

قال الطلاب : « ولكن يا سيدنا الأستاذ مَنْ كوخ هذا فما لنا به من علم ؟ »

قال الأستاذ : « مهما يكن من أمره ، فالكشف الذى أتاه عظيم ، كشفٌ غايةٌ فى الدقة ، غايةٌ فى البساطة ، غايةٌ فى العجب . وكوخ هذا ليس أستاذاً ... ولم يتعلم قط كيف يجرى الأبحاث ... وإنما تعلمه من ذات نفسه ، وصنع كل ما صنع بمجهوده وحده »

قال الطلاب : « ولكن ما هذا الكشف يا سيدنا الأستاذ ؟ »

قال الأستاذ : « أقول لكم اذهبوا ، واذهبوا جميعاً ، وانظروا بأعينكم ، واسمعوا بآذانكم ، فانه عَلِم الله أخطر كشف فى عالم المكروب ... كشف نتضاءل جميعاً إلى جانبه ....

اذهبوا . اذهبوا .. »

ولم يتم الأستاذ قوله إلى تلاميذه حتى كانوا قد خرجوا من الباب واختفوا عن بصره فلم يسمعوا آخر نبراته ، وكان من بينهم بول إرليس Paul Ehrlich (١)

قال بستور قبل هذا اليوم بسبع سنوات : « إن الانسان فى مقدوره محو الأمراض المعدية من على ظهر البسيطة » ؛ وعندئذ قال أحكم أطباء ذلك العصر : « إنه رجل مأفون » ؛ ولكن فى هذه الليلة خطا كوخ بالدنيا أول خطوة فى تأويل الحلم الذى ارتآه بستور . وختم كوخ حديثه الى الأساتذة الأمجاد قال : « إن أنسجة الحيوانات التى تموت بداء الجمرة لا تعدى بهذا الداء إلا إذا هى حملت بشلاته أو بزور هذه البشلات ، سواء أكانت هذه الأنسجة صابحة أو فاسدة ، متعفنة أو جفت أو مضى عليها عام . وفى وجه هذه الحقيقة يجب أن يزول كل ظلٍّ من شك فى أن هذه البشلات هى سبب هذا الداء » ختم حديثه الى الأساتذة بهذا القول حتى لكأن تجاربه التى أراها اياهم لم يكن بها كفاية من اقناع ؛ وزاد على ما قال بأن أبان لستمعيه ، وقد أخذتهم الدهشة ، طريقاً لمكافحة هذا الوباء ، طريقاً أرته تجاربه اياه لمحو هذا الداء ، قال : « إن كل حيوان يموت بالجمرة يجب اعدام جثته فى الحال ، فاذا لم يكن فى الامكان حرقها ، فلا أقل من دفنها عميقة فى الأرض حيث البرودة شديدة فلا تأذن للبشلات أن تستحيل الى بزور تقاوم شدة الحياة وجبروتها طويلا ...... »

وهكذا علم كوخ الناس فى هذه الثلاثة الأيام كيف يبدأون فى محاربة المكروب ويدفعون عن أنفسهم أسباب المهالك التى تكمن لهم خفية فى الظلام ؛ وهكذا بدأ فى حمله الأطباء على الاقلاع عن اللعب الهازل بالحبوب والملق فى مداومة الأدواء ، واحلال العلم والمنطق محل السحر والخرافات

وقع كوخ بذهابه الى مدينة برسلاوة فى زمرة من رجال أمناء كرماء مخلصين ، بذلوا له من صداقتهم ومن عونهم الشىء الكثير ، نخص بالذكر منهم الأستاذين كون Cohn وكون هايم Cohnheim ، ذلك لأنهما أولا لم يسرقا أبحاثه ، ولصوص العلم ليسوا أقل عددا من اللصوص فى مناشط الحياة الأخرى . وثانياً لأنهما صيّحا له وهتفا هُتافاً تردد أصداؤه فى أوربا ، حتى لأوجس بستور خيفة على مكانه سيدا لبُحّاث المكروب ، وأخذ هذان الرجلان يرسلان الكتاب تلو الكتاب الى مصلحة الصحة الامبراطورية ببرلين يعرفانها بأمر هذا الرجل الجديد ، مفخرة ألمانيا ؛ وصنعا ما صنعا ليمكناه من ترك عيادته ، وهى لا تكسبه غير البلادة ، وتيسير الرزق والمال له ليفرغ لدرس المكروب ودفع أدوائه . ومن يدرى ماذا يكون من أمر كوخ لو أنه جاء برسلاوة فلم يجد بها غير الزجر والمهانة والصدود ، إذن لعاد الى قريته واكتفى بمعاودة صناعته من جس النبض والنظر فى ألسنة المرضى ، ولما كان من أمره الذى كان . إن رجل العلم لا ينجح إلا أن يكون فيه بعض خُلُق الدلالين وأرباب المعارض ـ وهكذا كان اسبالنزانى الفخم العظيم ، وهكذا كان بستور الحساس الصخاب ـ وإلا أن يكون له من أرباب الجاه وذوى السلطان من يحميه بجاهه ، ويدفعه ويزجه فى معترك الحياة ؟

يتبع

أحمد زكى

(١) هو العالم المكروبى الشهير ، وسنترجم له

نظرية النسبية الخصوصية

البحث الأول

الزمان ونسبيته

للدكتور اسماعيل أحمد أدهم
عضو أكاديمية العلوم الروسية

— ١ —

لنتصور قطاراً يتحرك من محطة القاهرة الساعة الثامنة ، فما معنى تحركه الساعة الثامنة ؟ لا خلاف فى أن معناه أن آونة تحرك القطار وحادثة وقوف العقرب الكبير فى الساعة على الرقم « ١٢ » والصغير على الرقم « ٨ » متوافقان

ولقد يجول بخاطر الكثيرين أن فى هذا البيان الكشف عن حقيقة الزمان . وهذا ظن صحيح فيــه من الوثوق الشيء الكثير لو كان العالم كله الساعة وما حولها . ولكن مثل هذه الفكرة هل تنطبق على حادثتين : الأولى حدثت فى مكان قصى عن مكان الأخرى ؟ فمثلا لو فرضنا حادثة مثل الحادثة « ا » حدثت فى الشمس ، وحادثة أخرى مثل الحادثة « ب » حدثت على الأرض ؛ فهل فى الامكان النظر فى تواقــتهما ؟

إن الاجابة على مثل هــذه الأسئلة تتطلب منا أن نذكر أن مسألة التواقت مسألة ترجع لتساوى سير حركة الساعات فى مختلف الأمكنة ، وهذا الأمر يرجعنا الى واسطة التعيين

لنفرض كرة مثل « ك » بها نقطتان ثابتتان ، الأولى « ا » والثانية « ب » ، وبكل نقطة من هاتين النقطتين توجد ساعة ، ولنرمز لساعة النقطة الأولى بالرمز « س١ » ، ولساعة النقطة الثانية بالرمز « سب » ، ولنفرض أن المسافة بين هاتين النقطتين هى « م » ؛ فلكى نوحّد سير الساعتين نجد أمامنا إحدى طريقتين نسلك إحداهما لتوحيد سير ساعتى النقطتين : الطريقة الأولى تنحصر فى نقل الساعة « س١ » والساعة « سب » إلى مكان واحد ، ثم ضبطهما هنالك على زمان واحد ، ثم اعادة كل ساعة الى المكان الأول . والطريقة الثانية تستند على إشارة ضوئية من النقطة « ا » الى « ب » مثلا ، فتضبط بناء عليها الساعة « سب » زمانها حسب زمان الساعة « س١ »

وهاتان الطريقتان لا زالتا مستعملتين إلى يومنا الحاضر فى حياتنا العملية ؛ فالسفن تتبع الطريقة الأولى عندما تضبط وقت ساعاتها حسب أزمنة الموانئ التى ترسو عليها ؛ وتتبع الطريقة الثانيــة بمراجعتها أزمنة ساعاتها وكرونومتراتها خلال سيرها باشارات التليفون اللاسلكى لتصحح الفروق الناشئة فى الزمن من اختلاف خطوط الطول والعرض على سطح الكرة الأرضية . ويمكننا استناداً إلى هذه الظاهرة تقرير اختلاف الزمان ؛ غير أن هذا التقرير لا تكون له قيمة علمية إلا بعد تعميمه على الأكوان

فلنفرض فى كون مثل « ك » ساعة مثل « س » ، فهل فى الامكان جعل ساعتين مثل « س١ » و « س٢ » فى كونين مثل « ك١ » و « ك٢ » تتحركان حركة انتقالية مستقيمة متساوية فى الزمان مع زمان الكون « ك » ؟

الاجابة عن هذه المسألة خارجة عن نطاق علم الطبيعة (Physics) مادامت هذه الأكوان يتحرك بعضها إزاء بعض حركات انتقالية ؛ ومهما كانت هذه الفروق المتولدة من هذه الحركات ضئيلة فمسألة تساوى الزمان فى هذه الأكوان أو عدم تساويه لا يمكن معرفتها إلا بالرجوع الى الاشارات الضوئية . والاستناد على الأمواج النورية فى تقرير تواقت الزمان قائم على ثبات سرعة النور ، وهى وإن كانت سرعة محدودة إلا أنها سرعة فوق كل سرعة

وقضية ثبات سرعة النور تجرنا إلى معرفة حركات الأكوان المطلقة خلال الفضاء الأثيرى

بيان : اختصرت هذا البحث من كتابى : Die Grundlangen der Relativitaetsthearie; Leipzig. 1934 ، الذى أحاول نقله مختصراً إلى العربيــة تحت عنوان : « نظرية النسبية وقيمتها العلمية » وقد أوشكت على الانتهاء من جزئه الأول فى ٢٨٠ صفحة ، وسيقدم إلى الطبع عن قريب . ومقال اليوم أول أربع مقالات ستليه :

١ : وحدة قوانين الطبيعة والبعد الرابع فى النسبية
٢ : مبادئ الميكانيكا الحديثة
٣ : مبادئ الديناميكا الجديدة
٤ : كون مينقو فسكى والفاصلات الفراغية والزمانية

وستكون هذه المقالات الخمس زبدة النسبية الخصوصية

اذا أرسلنا شعاعة نور فى اتجاه سرعة الأرض فستكون سرعة هذه الشعاعة بالنسبة للشاهد الذى أرسلها من فوق الأرض :

« ٣٠٠,٠٠٠ كم – سرعة الأرض فى الفضاء الأثيرى »

وفى حالة ارسال شعاعة النور فى عكس اتجاه سرعة الأرض فستكون سرعة الشعاعة متضخمة بسرعة الأرض بالنسبة لمرسلها

« ٣٠٠,٠٠٠ كم + سرعة الأرض فى الفضاء الأثيرى »

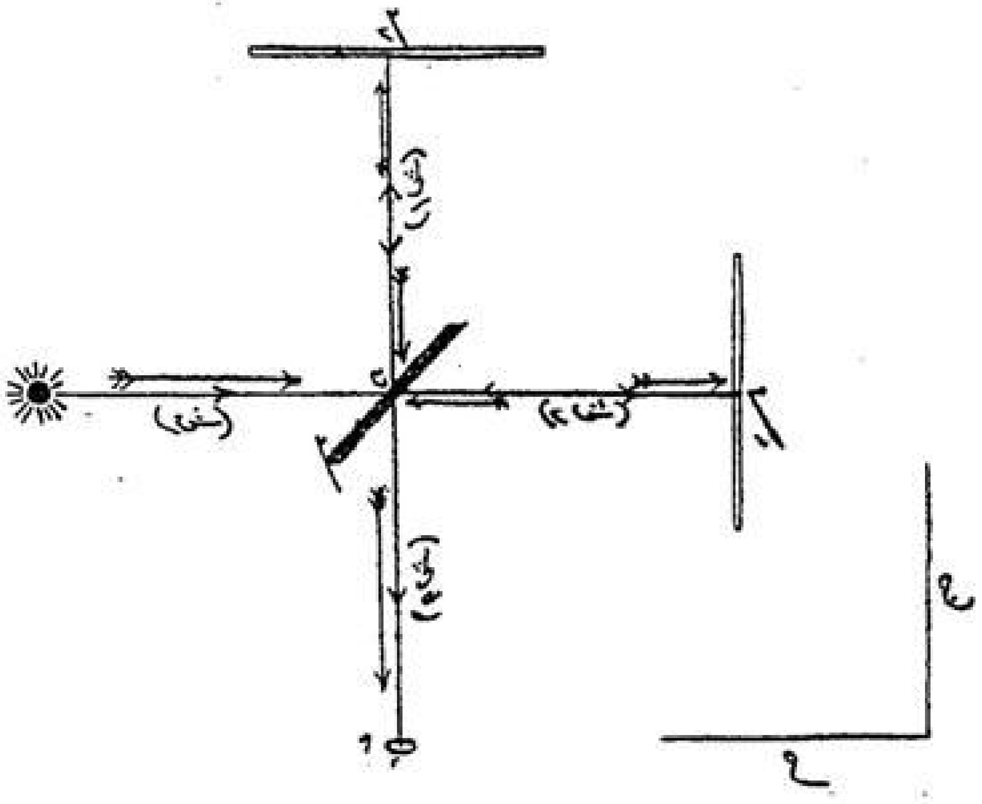
وكل التجارب التى أجريت فى هذا الصدد أسفرت عن نتيجة سلبية

— ٣ —

لنفرض شعاعة نور مثل « س » تقع على مرآة نرمز لها بالرمز « م » ، وهذه المرآة نصف عاكسة ، فتنشق شعاعة النور « س » شعاعتين : المعكوسة « س١ » والمكسورة « س٢ » ، وقد وضعت المرآة « م » بالنسبة لاتجاه الشعاعة « س » بحيث يجعل الشعاعتين « س١ » و « س٢ » متعامدتين إحداهما على الأخرى ؛ ولنفرض أنه قد وضعت فى خط سير هاتين الشعاعتين وعلى بعد ثابت من المرآة « م » مرآتان أخريان ، الأولى « م١ » والثانية « م٢ » بحيث تردان الشعاعتين « س١ » و « س٢ » إلى المرآة « م » ؛ وهنالك عند التقائهما ثانية تمكسان عكساً نصفياً فيتحد الجزء المعكوس من الشعاعة « س٢ » مع الجزء المكسور من الشعاعة « س١ » فى الشعاعة الأخيرة « س٣ » ، فاذا ما سارت الشعاعتان مسافة واحدة من نقطة افتراقهما إلى نقطة التقائهما ثانية : أعنى إذا كانت المسافة من « م » الى « م٢ » تعادل المسافة من « م » الى « م١ » تعادلا تاماً ، فانك إذا ما وضعت عينيك فى الوضع « د » شاهدت الشعاعة « س٣ » كاملة لا نقص فيها ؛ أما إذا كانت المسافة « م – م١ » تنقص أو تزيد على المسافة « م – م٢ » بما يعادل نصف موجة النور أو حاصلا صحيحاً لنصف موجة النور ، فان الشعاعتين تكونان قد سارتا منذ انفراجهما إلى اتحادها ثانية غير متعادلتين ، فينجم عن ذلك تداخل نورى بين حركة الموجتين يشف عن نظام تداخلى يتظاهر فى شكل حلقات من النور والظلمة (١)

ولو فرض وأزحنا « م١ » أو « م٢ » قليلاً بمعنى أننا غيرنا تعادل المسافتين « م – م١ » و « م – م٢ » ألفينا هذه الحلقات تتحرك ، أو قل تتقاص شيئاً فشيئاً إلى أن تختفى فى الوسط المشترك بينهما ، ثم تظهر حلقات جديدة من خارج النظام ، ويكون عدد ما يختفى معادلا عدد ما يظهر من الحلقات ؛ ومن مقدار تغير « م – م١ » أو « م – م٢ » نستطيع حساب الحلقات الواجب اختفاؤها على هذا المنوال . لهذا لو كان هنالك راصد مشاهد لهذا النظام ، وطفقت حلقاته تتقاص بغتة ، أمكنك أن تحكم يقيناً إن كانت المسافة « م – م١ » أو « م – م٢ » قد شرعت فى التغير ؛ وإذا حسبت عدد الحلقات المختفية استطعت التنبؤ بمقدار تغير المسافتين

أجرى(١) الدكتور ميكلصون Michelson ، والأستاذ مورلى Morley تجربتهما بحيث كانت حركة الشعاعة موازية لحركة الأرض « ح » حول محورها مثلاً ، أى وضعت « م١ » بحيث تكون المسافة « م – م١ » ممتدة شرقا غربا ، فتكون لذلك الشعاعة « س١ » متعامدة على اتجاه حركة الأرض حول محورها ، أى تكون ممتدة شمالا جنوبا فى الاتجاه « ح »



شكل بيانى رقم « ١ » من كتاب :
Louis-Gustave du pasquier : Le principe de la Relativité et les théories d'Einstein. p. 44 7 ig: 6.

ولكن عند ما تنفصل الشعاعتان « س١ » و « س٢ » عند النقطة « ن » تسير كلتاهما بسرعة واحدة بالنسبة للفضاء الأثيرى ، لأنهما كلتيهما تموج أثيرى ، والاختلاف لا يكون إلا باسنادها إلى شىء آخر ، وليكن الجهاز : « جهاز ميكلصون —

1: Louis Gustave du Pasquier : Le principe de la Relativité et les theories d' Einstein., Paris 1922., P 86 — 112.

(١) التجربة التى قضت على الأثير ١٩٣١ المقتطف ، شارل مالك

مورلى» فتكون سرعة «س١» بالنسبة للجهاز غير سرعة «س٢» بالنسبة له، لأن هذه الآلة تدور مع الأرض فى دورانها حول محورها، والشعاعة «س١» متعامدة على السير بينما الشعاعة «س٢» موازية له؛ فمن هذا الاعتبار ينتج أن سرعة «س٢» بالنسبة لجهاز ميكلصون عند ما تكون الشعاعة «س٢» سائرة نحو «م٢» هى:

ص − ح ...... «معادلة ١»

حيث أن «ص» رمز لسرعة الضوء المنطلقة خلال الأثير، و«ح» رمز لسرعة الأرض حول محورها. وعند ما تنعكس الشعاعة «س٢» عن «م١» تصبح سرعتها بالنسبة للجهاز هكذا:

ص + ح ...... «معادلة ٢»

أما الشعاعة «س١» فلها نفس السرعة فى سيرها نحو «م٢» لأنها مركبة من سرعتين متعامدتين مثلا، ولكنها فى ذهابها وإيابها فى كلتا الحالتين ستكون متعامدة على اتجاه سير الآلة أو الجهاز، وستكون مقدار هذه السرعة:

$\sqrt{ص^{٢} + ح^{٢}}$ ...... «معادلة ٣»

وذلك لأنها مركبة من سرعتين[1].

على هذا الأساس رتب الدكتور ميكلصون وزميله الأستاذ مورلى جهازهما فى الأوضاع السابق ذكرها، وأخذا رقبان الشعاعة «س٣» من النقطة «ى» فارتسم أمامهما نظام متداخل ناجم عن تداخل الشعاعتين فى بعض، وعند ما أديرت الآلة بكامل أجزائها حول المحور «ى» بحيث أصبحت «م − م١» متعامدة على اتجاه حركة الأرض بعد أن كانت موازية، واتخذت الشعاعة «م − م٢» وضعاً موازياً لحركة الأرض بعد أن كانت متعامدة. فكان المنتظر أن هذا التغيير يسفر عن تغير سرعة الشعاعتين بالنسبة للآلة فى الزمن الذى تستغرقه كل من الشعاعتين فى سيرها من المركز «ى» إلى المرايا المعاكسة ورجوعها إلى «ى» ثانية. ومن البديهى أن الزمن الذى تستغرقه الشعاعة «س٢» فى وضعها الجديد أقل من الزمن الذى استغرقته وهى فى وضعها القديم؛ أعنى أن شعاعة النور فى سيرها فى اتجاه متعامد – بشرط أن تنعكس الشعاعتان وتردا إلى مصدرهما، وإدارة الجهاز حول محوره تسعون درجة – لا بد وأن تسفر عن ابطاء الشعاعة الواحدة فى رجوعها إلى «ى» واسراع الشعاعة الأخرى فى هذا الرجوع[1].

هذا الابطاء والاسراع يؤثران فى النظام الداخلى، إذ تنقص بعض الحلقات وتختفى حلقات الوسط وتبدو حلقات جديدة تتسرب للنظام من طرفه الخارجى. ذلك لأن تباطؤ الموجة الواحدة فى رجوعها يفضى الى تداخل جديد مع حركة الموجة الثانية التى أسرعت فى الرجوع[2].

ولما كانت سرعة الأرض حول محورها معلومة، وسرعة النور فى الفضاء الأثيرى معلومة كذلك، فمن المستطاع قياس الفاصلتين «م − م١» و«م − م٢» واستخراج طول موجة النور، وبذلك يصبح من الممكن حساب التأخير اللازم حدوثه إذا ما أديرت الآلة ومقدار التغير اللازم طروؤه على عدد الحلقات من تقلص واحتجاب

على مثل هذا الأساس العلمى الدقيق أجريت تجربة ميكلصون، ولكنها أسفرت عن نتيجة سلبية إذ لم تتغير الحلقات ووصلت الشعاعتان معاً. ثم أعيدت التجربة مع الدقة الشديدة ولكن لم تسفر عن نتيجة[3]

(بقية البحث فى العدد القادم)

اسماعيل أحمد أدهم

(1): A. A. Michelson and E. W. Morley: The American Journal of Science and arts, Mew-Haven 31 (1886) P. 337., and (3) 22 (1881) p. 120.

(1): A. A. Miehelson an. E. W. Morley: Philosophical Magazine of London., Edinburgh and Dublin. (5) 24. (1887) p. 449.

(2): M. Fitzgerald: Annalen der Pluysik., Leipzig. (4) 1907 p. 137.

(٣) اعتمدنا فى الكتابة عن تجربة ميكلصون إلى حد كبير على نص ما كتبه الأستاذ شارل مالك فى مقتطف اكتوبر ١٩٣١ تحت عنوان «التجربة التى قضت على الأثير» وقد اعتمدنا على هذا النص العربى لدقته

أندلسيات :

٣ـ قصة الفتح بن خاقان

للاستاذ عبد الرحمن البرقوقي

أخلاق الفتح

نقول إن ابن بسام كان أعفّ لسانا ، وأنزه بيانا . أمّا الفتح ابن خاقان فقد كان مقذعا هجاء الى أنه كان مداحا فصالا [١] ، فمن أرضاه وألهاه ، مدحه وفتح لهاه ؛ ومن لا يرضخ له من ماله بما يرضيه ، هجاه وأقذع وولغ فيه . وربما دسّ له لدى أولى الأمر وضرّامم عليه . ومن ذلك ما كان منه مع فيلسوف الأندلس أبي بكر بن الصائغ وطبيبها الأكبر أبي العلاء بن زهر كما سيمر بك قريبا ... وقد كان مع ذلك سكيراً معربدا الى هنوات أخرى لقد يندى لها جبين الأدب ، وقعدت به عن بلوغ المراتب التى بلغها أمثاله ومن هو دونه . قال الوزير لسان الدين بن الخطيب فى حق الفتح : كان آية من آيات البلاغة لا يُشَق غباره ، ولا يدرك شأوه ، عذب الألفاظ ناصعها ، أصيل المعانى وثيقها ، لعوبا بأطراف الكلام ، معجزا فى باب الحلى والصفات ، إلا أنه كان مجازفا مقدوراً عليه [٢] ، لا يملّ من المعاقرة والقصف حتى هان قدره ، وابتذلت نفسه ، وساء ذكره ، ولم يدع بلدا من بلاد الأندلس إلا دخله مسترفداً أميره . وأغلا فى عليته [٣] ... وقال ابن بشكوال فى الصلة : وكان ـ الفتح ـ معاصرا للكاتب أبى عبدالله بن أبى الخصال ، إلا أن بطالته أخلدت به عن مرتبته . وجاء فى النفح أن الفتح قصد يوما الى مجلس قضاء أبى الفضل عياض ـ صاحب الشفاء ـ مخموراً ، فتنسم بعض حاضرى المجلس رائحة الخمر ، فأعلم القاضى بذلك ، فاستثبت وحده حداً تاما .

(١) هو الذى يمدح الناس ليعطوه

(٢) المجازفة المخاطرة يقال جازف بنفسه إذا خاطر بها يرجع الى المساهلة كأنه ساهل بها وهو مجاز ومما استدركه الزبيدى شارح القاموس . ولعل ابن الخطيب يريد أن الفتح كان مستهترا جريئا على فعل ما لا يليق بعقله . ومقدورا عليه يريد ـ لعله ـ أنه ضعيف الارادة لا يقدر على ضبط نفسه

(٣) فى عليته أى فى قصره وداره فيكون الضمير للأمير ، أو فى سرواته وإشرافه فيكون الضمير الى البلد

وبعث اليه بعد أن أقام عليه الحد بثمانية دنانير وعمامة ... فقال الفتح حينئذ لبعض من أصحابه : عزمت على إسقاط القاضى أبى الفضل من كتابى الموسوم بقلائد العقيان ، قال : فقلت له : لا تفعل ، وهى نصيحة ، فقال : وكيف ذلك ؟ فقلت له : قصتك معه من الجائز أن تنسى وأنت تريد أن تتركها مؤرخة ، إذ كل من ينظر فى كتابك يجدك قد ذكرت فيه من هو مثله ودونه فى العلم والصيت ، فيسأل عن ذلك فيقال له ، فيتوارث العلمَ عن الأكابرِ الأصاغرُ ؛ قال : فتبين ذلك وعلم صحته وأقرّ اسمه فى (القلائد)

ولقد أزلفنا أنه هجا الفيلسوف ابن الصائغ وأقذع فى ترجمته له فى القلائد ، ثم مدحه وأثنى عليه فى المطمح ؛ وقد حدثنا الوزير لسان الدين بن الخطيب عن سبب هجائه إياه أولا ، قال : وحدثنى بعض الشيوخ أن سبب حقده على ابن باجه أبى بكر آخر فلاسفة الاسلام بجزيرة الأندلس ما كان من إزرائه به فى تكذيبه إياه فى مجلس اقرائه إذ جعل يكثر ذكر ما وصله به أمراء الأندلس ، ووصف حليا ، ـ وكان يبدو من أنفه فضلة خضراء اللون ، فقال له : فمن تلك الجواهر إذن الزمردة التى على شاربك ... فثلبه فى كتابه بما هو معروف ...

أما مدحه إياه بعد إذ هجاه فقد ذكر لنا العماد أن ذلك كان منه بعد أن أنفذ إليه مالا استكفه به واستصلحه . . . وإليك نتفاً مما كتبه فى القلائد هاجيا ، ثم مما كتبه فى المطمح مادحا : قال فى القلائد : « هو ـ أى ابن الصائغ ـ رمد عين الدين ، وكمد نفوس المهتدين ، اشتهر سخفا وجنونا ، وهجر مفروضا ومسنونا ، فما يتشرع ، ولا يأخذ فى غير الأضاليل ولا يشرع ، ناهيك من رجل ما تطهر من جنابة ، ولا أظهر مخيلة إنابة ، ولا استنجى من حدث ، ولا أشجى فؤاده بتوار فى جدث ، ولا أقر بباريه ومصوره ، ولا فر بتباريه فى ميدان تهوره ، الاساءة اليه أجدى من الاحسان ، والبهيمة عنده أهدى من الانسان ، نظر فى تلك التعاليم ، وفكر فى أجرام الأفلاك وحدود الأقاليم ، ورفض كتاب الله الحكيم العليم . الخ الخ [١] » . وقد أورد له متعمداً أبياتا ليست من جيد شعره . وأين هذا من تحليته له

(١) راجع قلائد العقيان

في المطمح بقوله فيه ماهذا بعضه : « نور فهم ساطع ، وبرهان علم لكل حجة قاطع ، تتوّجت بمصره الأعصار ، وتأرجت من طيب ذكره الأمصار ، وقام وزن المعارف واعتدل ، ومال للأفهام فننا وتهدّل ، إذا قدح زند فهمه أورى بشرر للجهل محرق ، وإن طما بحر خاطره فهو لكل شيء مغرق ، مع نزاهة النفس وصونها ، وبعد الفساد من كونها ، والتحقيق الذي هو للإيمان شقيق ، والجد ، الذي يخلق العمر وهو مستجد ، وله أدب يود عطارد أن يلتحفه ، ومذهب يتمنى المشترى أن يعرفه ، ونظم تعشقه اللبات والنحور ، وتدعيه مع نفاسة جوهرها البحور ، الخ الخ » . وأورد له شعرا جيدا . وكل أولئك تراه في ترجمتنا لهذا الفيلسوف الأندلسي العظيم . . . أما ما كان من الفتح من الكيد للفيلسوف الكبير والطبيب النطاسي الأشهر والوزير الخطير أبي العلاء زهر لدى أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين ، فقد جاء في نفح الطيب ما نصه : « وكان بينه ـ أي بين أبي العلاء زهر ـ وبين الفتح صاحب القلائد عداوة ، ولذلك كتب في شأنه إلى أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين ما صورته :

أطال الله بقاء الأمير الأجل سامعا للنداء ، رافعا للتطاول والاعتداء ، لم ينتظم الله الملك بلبتك عقدا ، وجعل لك حلا للامور وعقدا . وأوطأ لك عقبا ، وأصار من الناس لعونك منتظرا ومرتقبا ، الا أن تكون للبرية حائطا ، وللعدل فيهم باسطا ، حتى لا يكون منهم من يضام ، ولا ينال أحدهم اهتضام ، ولتقصر يد كل معتد في الظلام . وهذا ابن زهر الذي أجرته رسنا ، وأوضحت له الى الاستطالة سننا ، لم يتعد من الأضرار إلا حيث اشتهيته ، ولا تمادى على غيه إلا حين لم تنهه أو ألهيته ، ولما علم أنك لا تنكر عليه نكرا ، ولا تغير له متى ما مكر في عباد الله مكرا ، جرى في ميدان الأذية ملء عنانه ، وسرى إلى ماشاء بعدوانه ، ولم يراقب الذي خلقه ، وأمدّ في الحظوة عندك طلقه ، وأنت بذلك مرتهن عند الله لأنه مكّنك لئلا يتمكن الجور ، ولتسكن بك الفلاة والغور ، فكيف أرسلت زمامه حتى جرى من الباطل في كل طريق ، وأخفق به كل فريق ، وقد علمت أن خالقك الباطش الشديد يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، وما يخفى عليه نجواك ، ولا يستتر عنه تقلبك ومثواك ، وستقف بين يدى عدل حاكم ، يأخذ بيد كل مظلوم من ظالم ، قد علم كل قضية قضاها ، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، فبم تحتج معي لديه ، إذا وقفت أنا وأنت بين يديه ؟ أترى ابن زهر منجيك في هذا المقام ، أو يحميك من الانتقام ، قد أوضحت لك الحجة ، لتقوم عليك الحجة ، والله النصير ، وهو بكل خلق بصير ، لا رب غيره والسلام ... هذا جانب من خلائق الفتح : تحوّل وتقلّب ، ونقض لما أبرم ، وإبرام لما نقض ، وهجاء ثم مدح ، ومدح ثم هجاء ، ومناوأة للفلاسفة ، واستعداء للملوك والأمراء عليهم ، الى ما أشرنا اليه آنفاً من خلعه المذار واستهتاره ، وإدمانه المعاقرة وفسوقه ، حتى كان ذلك سبباً ـ كما يقول المؤرخون ـ في تخلفه عن لداته وقعوده عن بلوغ عليا الرتب التي بلغوها . ومن هنا كان حبه المال حبا نال من كرامته ونقص من قيمته وصيّره شهرة لدى العلماء والأمراء وسائر العلية والسروات . ومما يؤخذ عليه أيضا غروره واعتداده بنفسه إلى أقصى حد ؛ ولا أدل على ذلك من قوله في خطبة قلائده : «الحمد لله الذي راض لنا البيان حتى انقاد في أعنتنا ، وشاد مثواه في أجنتنا ، وذلل لنا من الفصاحة ما تصعب فملكناه ، وأوضح لنا من مشكلاتها ما تشعب فسلكناه ، فصار لنا الكلام عبدا يجيب إذا ناديناه ، وسهما يصيب الغرض إذا رميناه »

وبعد فقد كان هذا الأديب الألمعي الموهوب من أولئك الأدباء الذين أدركهم داء الانحطاط ، ومثله كثير بين أدباء العرب والعجم والمشرق والمغرب قديماً وحديثاً ... وهذا الصنف من الأدباء والفنانين جدير بالرحمة والرثاء ، لأن عبقريتهم هي سر انحطاطهم ، إذ العبقرية في الحق شعبة من الجنون كما شرح ذلك لمبروزو وماكس نوردو وغيرها . وقد كان انحطاط هذا الأديب سببا في قتله ... وفي أنفة مؤرخ كبير وأديب نابغ هو ابن الأبار القضاعي من ترجمته والتعرض لذكره ، فقد قال هذا ابن الأبار في معجم أصحاب الصدفي : إنه لم يكن مرضيا وحذفه أولى من إثباته . ولذا لم يذكره في التكملة . أما قتله فقد قال ابن سعيد في المغرب ـ بعد كلام ـ مانصه : « وقد رماه الله تعالى بما رمى به إمام علماء الأندلس أبا بكر ابن باجّه ، فوجد في فندق بحضرة مراكش قد ذبحه عبد أسود خلا معه بما اشتهر عنه وتركه مقتولا ... ... » ... وقال ابن دحية إنه قتل ذبحا باشارة على بن يوسف بن تاشفين ...

(يتبع)

عبد الرحمن البرقوقي

٦ـ معركة عدوى

للأستاذ الفريق طه باشا الهاشمي

رئيس أركان حرب الجيش العراقي



كانت القوة كلها مؤلفة من أربعة أفواج وسرية خيالة وبطرية جبلية . وكان لدى كل سرية مشاة يبلغ عددها (٢٠٠) جندى ، أربعة طليان وهم رئيس وملازمان وضابط صف . أما الملازمان الآخران فمن الأهلين . ونظراً الى التنسيق الجديد بلغت القوة فى المستعمرة ما يلى :

١٧١	ضابطاً طليانياً
١٤٠٠	جندى طليانى
٣٧	ضابطاً أهلياً
٤٤٠٠	جندى أهلى
٦٠٠٨ر	المجموع

وفى سنة ١٨٩٥ أحدث الحاكم العام الجنرال « باراتيرى » احتياطاً من الجنود المسرحين يتألف من ثمانى سرايا تبلغ قوتها ١٧٠٠ جندى

وأطلق الطليان على الجندى الأهلى اسم « عسكرى »

ولما توترت العلاقات أنجد الطليان جيش المستعمرة بقوات أخرى جلبوها من إيطاليا . وفى الشهر الأخير من سنة ١٨٩٥ بلغت النجدة أربعة أفواج قوة كل منها ٦٠ جنديا . ثم جعلوا القوة الأهلية ثمانية أفواج بعد أن كانت أربعة أفواج . وزادوا قوة السرية فيها من ٢٠٠ إلى ٣٠٠ جندى ، وهكذا بلغت قوة الجيش ١٤ر٠٠٠ ، منها ٢ر٨٠٠ جندى طليانى

وباضافة قوة الاحتياط إلى ذلك أصبحت قوة الجيش ١٨ر٠٠٠ جندى ، وفى معركة عدوى كانت قوة الجيش كما يلى :

(ا) لواء الجنرال « البرتونة » وكان مؤلفاً من أربعة أفواج أهلية وبطريتين طليانيتين وبطرية أهلية

(ب) لواء الجنرال « دابورميدا » وكان مؤلفاً من ستة أفواج طليانية وفوج أهلى وأربع بطريات طليانية

(حـ) لواء الجنرال « اريموندى » وكان مؤلفا من خمسة أفواج طليانية وسريتين أهليتين وبطريتين طليانيتين

(د) لواء الجنرال « اللانا » وكان مؤلفاً من ستة أفواج طليانية وفوج أهلى وبطريتين طليانيتين سريتى الرمى وسرية هندسة

فالجيش كان مؤلفاً من ثلاثة وعشرين فوجا ، وسريتى مشاة ، واثنتى عشرة بطرية ، وسريتى هندسة ؛ وكان مجموع القوة :

٥١٠ ضباط ، و١٢ر٤١١ جنديا إيطاليا ، و٧ر٣٣٠ جنديا أهلياً و٦٤ مدفعاً ، ومجموع رجاله ٢٠ر٢٥١ رجلا ، وهكذا يصيب كل ألف جندى ٣١١ مدفعاً ، وكانت هذه النسبة جيدة فى ذلك الزمن

أسلوب التعبئة الطليانية

كانت كتب التعليم الطليانية شائعة فى جيش المستعمرة ، إلا أن بعض أحكامها عدل نظراً الى حالة العدو . وكان بعض هذا التعديل ، الحركة فى ميدان المعركة بالنظام المنظم ، والانتشار بصف واحد ، على أن يكون الجنود متجانبين دون فرجات

وظهر من حركات البريطانيين على المهدى أن هذا الأسلوب لا يفى بالمرام تجاه صولة الأحباش الذين يظهرون شجاعة فائقة فى حملاتهم ، فاستفادت القيادة الطليانية من حركات البريطانيين وقررت أن تترك قدمات احتياط فى الخلف لتنجد الخط الأول عند الحاجة أو لتكون متأهبة للطوارئ . إلا أن الضباط

لم يتعودوا هذا الأسلوب تماما لما وقعت معركة عدوى ، ولاسيما أنهم كانوا قد تدربوا على أساس التعبئة الأوربيـة قبل مجيئهم الى المستعمرة

ليس من السهل دخول القتال فى مستعمرة بعيدة عن الوطن ما لم تنظم أمور السوقيات ؛ والظاهر من تدابير الطليان أنهـم لم يضعوا خطة ناجحة لشؤون النقلية ولم يمهروا فيها ، فاتخـذوا الميناء « مصوع » قاعدة للحركات وأرسـلوا اليها القطعات والتجهـيزات على التعاقب دون ترتيب . فكانت التجهيزات ومواد الاعاشة تـكدس هنا وهناك بصورة يصعب نقلها من الميناء إلى الداخل

والأغرب من كل ذلك أن الحـكومة الطليانية كانت ترغب فى إدارة رحى الحرب دون انفاق المـال . ولما طلب الجنرال باراتيرى المال أجابه رئيس الحـكومة « كريسبى » بأن نابليون الأول كان يحارب حروبه بمال العدو ؛ قال هذا ناسياً أن الساحة التى يتحرك الجيش فيها هى أرض قفراء لا ماء ولا أقوات كافية فيها

الشروع فى القتال

توترت العـلاقات فى مايو ١٨٩٤ . وفى آخر شهر من هذه السنة ظهرت علائم التمرد فى جنوبى أسمره . وكان المحرض على ذلك رأس تيجرى « منيغسيا » ، ولـما سمع الطليان أنه يجمع الجنود طلبوا منه تسريحهم فلم يجب طلبهم

وعلى أثر ذلك تقدمت القوة السفرية المـكلفة بستر أسمرة ومصوع بقيادة الجـنرال « باراتيرى » الى شمالى نهر مارب وعسكرت هناك

وفى ١٣ يناير ١٨٩٥ عـبر « منيغسيا » نهر بلزة فتقدم الجنرال نحوه ونشبت المعركة فى كواتيت . ورتب باراتيرى ثلثى قوته مع البطرية الجبلية فى الخط الأول ، وترك باقى القوة فى الخط الثانى لحماية جانبه الأيسر

وكان الأحباش يسعون للالتفاف حول هذا الجانب إلا أن إرسال الوحدات الأهلية للنجدة ، وثبات الطليان فى الجبهة ، واشتراك جميع القوات فى القتال على التدريج مما ساعد باراتيرى على الاحتفاظ بموقفه ، وتوقف القتال بعـد الظهر واستمرت المناوشات الخفيفة الى المساء وانسحب الأحباش ليلا

وشرعت القوات الطليانية فى المطاردة فى ١٥ يناير ١٨٩٥ وتقدمت طول النهار ولحقت بالأحباش فى سنافة . وبعد اطلاق بضع طلقات انسحب الأحباش ، وتقـدم الطليان على طريق الهضبة دون أن يضطروا الى عبور الأنهار ، ودخلوا ادجرات فى ٢٥ أبريل ١٨٩٥ . وفى شهر مايو بدأ موسم الأمطار الغزيرة فتوقفت الحركات

أما الأحباش فأخذوا يجمعون قواتهم لمقاتلة الطليان ، وكانوا يأملون أن يتم الحشد فى الخريف ، فشرع الأحباش فى الهجوم على الطليان لاخراجهم من البلاد . أما الطليان فأنجزوا تحـكيم موقع ادجرات فى شهر يونيو . والموقع كما نعلم يرتفع عن سطح البحر ٢٥٤٥ مترا وهو صالح لاقامة الأوربيين من حيث الهواء . وهو أيضا موقع خطير فى حد ذاته . ففيه تلتقى الطرق الممتدة إلى مقاطعة شوعا ومقاطعة أمحرة ، فضلا عن كونه واقعا فى نقطة ملتقى الجبال ، ومنه تتشعب سلسـلة عدوى التى تفصل حوض « تكاه » وتوابعه عن حوض « مارب » وتوابعه

وقرية عدوى عاصمة المقاطعة ، وعلى مسافة خمسة وعشرين كيلومترا منها تقع أكسوم العاصمة الدينية ، حيث يتوج عواهل الحبشة . واحتل الطليان عدوى أيضا فى شهر أبريل ، وبذلك استولوا على خط (ادجرات ـ عدوى) فسيطروا على المسالك المؤدية اليه ، وجعلوا حوضى النهرين تحت نفوذهم

واستمروا على التقدم من ادجرات سالـكين المرتفعات التى تفصل بين أحواض الماء ، ودخلوا قصبة «مكلة» أيضاً وحكموها

وعلى هذا الأسلوب تحركوا بحذر وشيدوا القلاع على طول الخط بمراحـل ٣ الى ٥ أيام . وكان من الضرورى الاهتمام بالمواصلات التى تربط هـذه القلاع بالساحل . ولا شك فى أن توسيع دائرة احتلالهم على هذه الصورة جعلهم ضعفاء فى كل محل ، لأن القوة لم تكن تكفى لحراسة خطوط المواصلات ، والدفاع عن هذه القلاع وتهيئة قوة سيارة تتحرك عند الحاجة لضرب الأحباش ، لأن القوة لم تزد حينئذ على ١٨٫٠٠٠ رجل . أما الخط الذى انتشرت عليـه القوة فيبدأ من « كسلا » ويمر بخط « كون ـ اسمره ـ ادجرات » وينتهى فى « مكلة » . وكانت الأخبار تؤيد تأهب الأحباش للمعركة الفاصلة . ولم يكتف الطليان

بنشر قواتهم على ذلك الخط الطويل بل أوفدوا قوة ستر مؤلفة من فوج أهلى وفصيلة مدفعية الى جنوبى « مكلة » فى مرحلتين الى (امبا ـ الاغى)

وفى نهاية السنة هاجم الأحباش هذا الموقع فدافعت القوة دفاعا مستميتاً ، ولم يتلق آمرها أمر الانسحاب إلا متأخراً بعد أن قضى الأحباش على قوته وغنموا مدفعيته ، بينما كان الموقف يتطلب أن يبلغ هـذا الآمر واجبه الأصلى وهو الدفاع الرجعى دون دخول قتال فاصل

وكانت القوة الحبشية مؤلفـة من ٣٠٫٠٠٠ رجل يقودها الرأس « ما كونين » والد الرأس « تفرى »

وكان الجنرال « اريمونذى » بكوكبه (بقسمه الأ كبر) فى مكلة ، ولمـا تيقن أن الأحباش سوف يهاجمونه وأنه لا يستطيع الدفاع أمامهم قرر الانسحاب ، فانسحب بسرعة الى « اداجاموس » ثم إلى « ادجرات » وترك فى مكلة فوجاً أهلياً مع مدفع جبلى فقط

أما النجاشى منليك فكان مهتما بجمع الجيش ليملى إرادته على الطليان ويهىء سبيل الخـلاص لبلاده . وبعد أن جمع المـال المطلوب من مقاطعة الغالا ، وأنجد جيشه بخيالة الغالا ، وصل إلى اديس أبابا وأعلن إلى الجميع أن الحبشة لا تحتاج إلى أحد بل تمد يدها إلى الله ، فتولى قيادة جيشه بنفسه وجمع جميع الرؤوس فى « بروميدا » وصرح لهم ولجميع المشايخ والأشراف برغبته فى طرد الطليان من البلاد وانقاذها من مخالب الاستعمار . فوافقه الرؤوس على ذلك بالاجمـاع ، وكان المشهد مما يثير الحماسـة فى الصدور ، وكانت قوة الجيش الحبشى مع قوة جيش « ما كونين » تبلغ ١٦٠٫٠٠٠ رجل . فحاصر ما كونين قلعة مكلة وأخـذ يدكها بنار مدافعه ، وقطع عليها طرق الماء . فاضطرها إلى التسليم فى ٢٥ ديسمبر ١٨٩٦ ووافق النجاشى على عودة الأسرى الطليان الى بلادهم لينشروا الرعب فى قلوب الطليان الآخرين

ولمـا انتشرت أخبار انتصار الأحباش فى المستعمرة ساد القلق والرعب فى قلوب الناس ، وفكر الطليان فى الدفاع عن ميناء مصوع أيضاً . وقررت القيادة حشد جميع القوات فى ادجرات لصد تقدم الأحباش ما عدا الحاميتين اللتين فى كرن وكسلا ، وكانت قوة الحامية منها مؤلفة من فوج وسرية خيالة وفصيل مدفعية

(يتبع) طه الهاشمى

مؤتمر القلوب

للأستاذ السيد محمد زيادة

سألت نفسى بعد تأمل وتفكير : « ماذا يكون لو أمكن كلَّ إنسان أن ينكمش حتى يختفى فى قلبه ، وأمكن قلبه أن يتسع حتى يحويه ؛ فيظهر للناس عارياً لا يكسوه إلا الشفاف ، ويصبح الشخصُ المنطوى على قلب قلباً منطوياً على شخص ، وتمشى القلوب وتتنقل ، وتدب حيث تحب ؟ أتنكشف السرائر ، وتسفر الخفايا ، وتباح الأسرار ؛ ويستطيع كل قلب أن يعرف ما له عند الآخر بغير حاجة الى رسول بينهما قد يصـدق وقد يكذب ، ويتبين المرء ما يكنُّـه له حبيبه أو صـديقه خاليا من الزيف والرياء ؟ »

وكان سؤالا غريبا جديدا ، فخيرنى الجواب عليه ؛ ثم رأيتنى فى الرؤيا أجرب هذا ... فانقبضتْ أطرافى الى بدنى ، وانحصر بدنى فى قلبى ، فأصبحت قلبا ومضيت لشؤونى فى الحياة ؛ ووجدتني مقبلا عليها بتلهف وشوق كما يقبل على الحرية سجين أطلقوه . فهو يندفع اليها بقوة ، ويتقلب على رحبها بشغف ، كأنه يريد أن يجنح فيها فيملأها . وهى تتلقاه هاشة باشـة ، وتتفتح له حيث اتجه ، وكأنها تريد أن يمتزج بها فيصير منها

ثم وجدتُنى هنا وهناك طلقاً موزعا متحيرا لا أستقر ، ولا أعرف كيف أستقر ، ولا أفهم معنى الاستقرار . وزعمت أننى لم أوجد فى الحياة الا لأتحسس الجمال وأتلمس الحب ، وخيِّل إلى وهمى أن الجمال فى كل لحظة ينادينى ، وأن الحب فى كل بقعة ينتظرنى ؛ فجننتُ بالجمال والحب ، وحلّقتُ فى سمائهما بأجنحة الخيال حتى كدت أتحطم أو تحطمتُ .. بين شقاء يجرُّنى اليه الهجر ، وشقاء يجرنى اليه الوصال

ورأيت العيون من حولى تلتهمنى بنظرات هى التعجب والاستغراب ، وكأنها تتخاطب قائلة : « ما لهذا القلب لا يهدأ ؟ » حتى كادت تشعرنى بأنى وحدى أصفق للجمال وأخفق بالحب . ولـكنى لم أحفل بالنظرات ولم أهب العيون ، وسرت فى طريقى كما أنا قلباً مهوماً شديد الخفقان

ثم رأيتُنى مدعواً إلى مؤتمر دعيتْ اليه القلوب جميعا ؛

ففرحتُ بهـذه الدعوة ونشطت إلى الائتمار . وتوافدنا نحن القلوب يسابق بعضنا بعضا ، ويحمل كل منا فى أعماقه ما يحمل

***

فهـذا قلب صاف لا رنق فيه ولا غبار عليه ؛ وهذا قلب درنٌ غلب على بعضه الدرنُ وغلب على بعضه النقاء ؛ وهذا قلب أسخمُ لم يبق فيه أثر لطبيعته ؛ وهـذا قلب كبير ؛ وهذا قلب صغير

ووقفتُ أرنو إلى ذلك الحشد الحافل وأستمتع بما فيه من مشاهدَ غريبة كانت محجوبة عني أو كنتُ محجوباً عنها ؛ وأخذ كلُّ قلب يتطلع إلى القلوب حوله ، ويستمتع استمتاعى وكأنه يحس ما أحسه من دَهَش يصحبه فرح ، ومن رَهَب تصحبه لذة

ورأيتُ على بعد غير سحيق من مكانى قلبا تقلص أديمُه ، وشاه مظهرُه ؛ فدلَّنا على باطن غاسق كالليل ؛ والقلوب كلها نافرة منه صادفة عنه ، كأنه قتاد يشوك من يقرَبه ، أو مخلوق وحشى يلتهم من يلمسه . وهو فى مكانه يوزع عليها نظرات ممتعضة ساخطة ملأى بالتمرد والتوعد . فسألتُ : « مالهذا القلب لا يجد منا صاحبا ولا نجد فيه أهلاً للصحبة ؟ » فقالوا : هـذا قلب رجل لا يعيش إلا ليبثَّ الفساد بين قلوب عارفيه ، ولا يستريح حتى يشى بين صـديقين متفقين ، أو يمكر ما بين حبيبين ناعمين ، أو يسىء إلى أحدٍ ما . فتراه يبتسم لهـذا ، ويداعب ذاك ، ويوسوس إلى ذلك ؛ حاسباً أن فى ابتسامته ودعابته وريائه ستاراً لحقده وخبثه وخسته ؛ ولـكن هيهات . . فـكلنا يعرف ما فى جوفه ، وكلنا يحتقره وينبذه ويلعنه ، وكلنا يود الآن لو يسحقه فيريح الوجود من وجوده

ورأيت فى ناحية أخرى قلبا شفَّ لونه ، وأضاءت سحنته ، فدلَّتنا على دخيلة بيضاء كالشمس ، والقلوب كلها ـ إلا ذلك القلب الداكن وأمثاله ـ متهافتة عليه ، متوددة اليه ، تصافحه وتحييه ؛ فيصافحها ويلاقيها بتحيات زكيات ملأى بالبر والقناعة ـ فسألت : « ما لهذا القلب لا يجدمنا قاليا ولا نجد منه داعيا للقلى ؟ » فقالوا : « هذا قلب رجل تقى كريم يعرف الله ويخشاه ، نصب نفسه لهداية الناس ، وقضى أيامه يجاهد الرذيلة ليحيى الفضيلة ، ويكره الشر ، ويحب الخير . فطالما سعى ليوفق بين صديقين مختلفين ، أو يصلح ما بين حبيبين تاعسين ، أو يحسن إلى أحدٍ ما ؛ فتراه يرشد هذا ، ويعلم ذاك ، وينتزع الغواية من ذلك ، صادقا فى كل ما قال وكل ما فعل ، مصلحاً أينما حل . فكلنا يعرف فضله ويقدره ويحترمه ويود لو يرفعه فيجعله فى السماء

ولفتَ بصرى قلبٌ غلا دمه ، وتصاعد البخار من فتحاته ، وكاد ينـدلع اللهب من جنباته ؛ حتى خلتُه تنُّوراً تنصهر فيه جدرانُه جزءاً فجزءاً ، ويشتد أزيزه كلما استعر جوفه . يروح ويغدو بين القـلوب هائجاً كالشرَّد ، حائراً كالضال ، لا تفتر قواه ولا ينقطع خفوقه . فتساءلنا عما به فوجدناه قلب محب فارقه حبيبه فبرَّح به الشوق ، وأضناه الألم ؛ فهو ظمآن لهفان يبحث عنه بيننا علَّه يلقاه فينقع اللقاء غلته ، ويبرد لهفته . فقلت : آه ! ! ما أعظم سلطان الحب . . آمنت بأن فى الحياة قلوباً تحار حيرتى وتكابد ما أكابد

وكان بين القلوب قلبٌ خالٍ كالبيضة إذا أفرختْ ، سافر كالمرأة إذا تهتكتْ ، باهت كالشمس إذا تنقبتْ بالسحاب . فكان أشبه شيء بالاسفنجة ؛ وأعجبني منظره الفاتر الخالى من كل قرائن الحياة ، لأنه شاذ بفتوره وخلوه منها ، وأخذتُ أراقبه مليا لأقف على سره لو كان لمثل هذا القلب سر ؛ فوجدته إمعة يظل ساكنا كالنائم فلا يتحرك حتى يحركه غيره ، ولا يتوجه حتى يوجهه غيره ، ولا يعمل إلا ما عليه عليه غيره

يدنو منه قلب من تلك القلوب السوداء هامساً موسوسا فلا يلبث حتى يسودَّ ويتشكل بشكله ، ثم يدنو منه قلب من تلك القلوب البيضاء الناصعة محدثاً مبشراً ، فلا يلبث حتى يبيضَّ ويتشكل بشكله ، وهكذا هو فى كل أحواله مقود لا إرادة له ولا صفة

فسألتُ عنه فقيل لى : هـذا قلب شاب ساذج أبله مغرور بنفسه ، مخدوع بغروره ، لم ينكبه الدهر ، ولم تكرثه العوادى ؛ فعاش كما تراه سلبيا من الشر ومن الخير ، بعيداً عن الحزن وعن الفرح ، وحسب أنه عاش كذلك برغبته وقدرته ، وأنه استطاع أن يهزأ بالأحـداث لأنه فوق متناولها ؛ ولم يعرف أن الله خلقه ضعيفاً فأنكره الدهر ، وهزأت بوجوده الأحداث

ووقع بصرى على قلب تراه واقفاً فلا تحسبه واقفاً لدأبه على الدق والتوثب ، ولا تفهم من خفقانه المتواصل معنى خفقان القلوب . وإنما تفهم معنى الجبروت والصولة والعربدة ! ! ينظر

الينا شزرا ويتطلع إلى محيطنا باستخفاف ؛ ثم يصرف عنا بصره ويتطلع إلى أبعد من محيطنا باستخفاف ؛ كأنه لا يشعر بنا وكأنه يعتبر الكون أضيق من أن يسع قوته وعظمته ، فلا يروح ولا يغدو إلا في تيه وخيلاء ، ولا يقف إلا وقفة المتمرد المتحفز ، وهو مع هذا أبكم ، أصم ، أعمى ، كافر ، لا يؤمن بالرحمة ، قاس لا يعرف الآلام ؛ فهو أشبه شيء بكرة من الحديد

قلت : قلب من هذا القلب القوى المتكبر ؟ قالوا : قلب رجل شجاع جبار لا يهاب الصعاب ، ولا يرضى الاستكانة ، ولا يعرف التسامح ، مفطور على الكبر والعظمة واستصغار الكبائر ؛ واستضعاف الأقوياء ، واستعباد الضعفاء . فهو يعتقد أنه مخلوق للغلبة والانتصار

***

ونظرتُ على يميني فرأيت قلبا استحق مني أن أطيل النظر اليه لما هو فيه من هم وكآبة ، وقطعت فترة طويلة من الوقت شاخصاً إليه ، متأملاً مشفقاً وأنا أحس أنه بائس وأن بيني وبينه صلة من البؤس مهما يكن بؤسُه ثم ملت اليه وسألته : ماذا بك أيها القلب الحزين الباكى ، ومالى أراك ساكنا ساكنا ... تبدو فى سكونك كاليائس المقشعر من يأسه ، وكأن بك تستكثر على نفسك أن تعيش لأنك برم بالعيش ! ! إنك منا ولكنك غريب عنا ؛ لا تخالطنا كما نتخالط ولا تحادثنا كما نتحادث ؛ فما رأيتك منذ رأيتك إلا زافراً تكبت الزفرات ، أو مستعبراً تخبأ العبرات ، وأحسب أنك تكبتَ فى حب فعشت فى ذكرياته ، وأن تلك الذكريات التى وصلتْ ما بينك وبين الماضي قطعت ما بينك وبين الحاضر : فماذا بك ، وقلب من أنت ؟

فانتفخ ، ثم صعدت من فوهته زفرة ملتهبة ، ثم صمت قليلا ، ثم رنا إلىّ طويلا ، ثم قال : دعني لمأساتى فالحب لا يحرق إلا من ألقى فيه

قلت : ولكني أريد أن أعرف مأساتك ؛ فعسى أن أعينك أو أواسيك أو أتوجع لك

فصعدت من فوهته زفرة أخرى وقال : أواه ... هذا شعور جديد فى الحياة أو جديد فى حياتى أنا فقط ، وهذه كلمات لم أسمع مثلها منذ حين . فيالك من قلب طيب !

إن مأساتى هى أنني بحياتى مأساة فى الحياة !! لقد كنت محبا واليوم قد مات الحب ، بل أنا محب ؛ كنت هانئا ، واليوم قدمات الهناء ... بالأمس كنت قلب فتاة عذراء مؤمنة ، واليوم أنا قلب امرأة متخالعة متماجنة ... امرأة مومس أقدمت على الدعارة مكرهة ، ثم مستسلمة ، ثم راضية ، ... امرأة ساقطة تبيع عرضها فى سوق الفجور (الرسمى) كل يوم لكل من يدفع الثمن ...

مسكينة هذه البائسة المجروحة التى تحملنى بين حناياها بائساً مجروحا ! ! إنها تحاول كثيراً أن تسكتنى وتخفينى ، ولو استطاعت لقطعت ما بينى وبينها من شؤون وصلات ، لتخلو لشؤون وصلات ذلك العالم الداعر الكافر الذى تعيش فيه بين ذبائح الانسانية وهدامى البشرية ، وأنا فى صدرها ألتاع وأتألم وأبكى وليست لى دموع إلا الدماء أستوردها من بدنها فيهزل قوامها ، وهزال قوامها يذبل شبابها ، وذبول شبابها يضيع جمالها ، وجمالها هو حياتها الفانية التى لا خير فيها

الرجال يحدثونها دائماً عن مواضع الفتنة ومواطئ اللذات فيها ، فلا تسمع رجلا واحدا يحدثها عن مواطن الحسرة ومدافن الذكريات فى أعماق نفسها ، ويسألونها كل يوم عن شهوة بعد شهوة ، ولا يسألونها : أى حزن دخيل ثقيل تحملين ، وكيف تتعذبين !! إنها تضاحكهم وتداعبهم ترويحاً لخلاعتها بينما تباكينى وتناجينى تفريجاً لكآبتى ، وهى فى ذلك مضطرة إلى التظاهر بأنها امرأة بلا قلب ولا ضمير ، وإلا اتهموها بأنها تحمل قلباً حياً وضميراً مستيقظاً ، وعدوها بذلك خائنة لحرفتها غير حافظة لنعمتها

لقد حبستنى وحرمتْ على أن يسمعنى أو يشعر بى أحد ، وما جئت إلى هنا إلا خلسة منها . فهى الآن فى أحط أوقاتها بين أحط الرجال

ولكنى لا ألومها فأنا الجانى الأول عليها ، ... لقد قادنى الحب فقدتها أنا الى معمعة العواطف ، ثم قادتها العواطف المطلقة إلى مغانم الشهوات ، ثم قادتها الشهوات الغريرة الى مساقط الفساد ، ثم إلى الهاوية التى لامقيل لها منها إلا الموت

وبكى وبكيت له ورحت أواسيه بالقول لأن مأساته أكبر من أن أعالجها بالعمل

(البقية فى العدد القادم)

السيد محمد زياده

عـــويل الدم

[مهداة الى الأستاذ الزيات]

من وحي مقال : « على هامش الموضوع »

بقلم جورج وغريس

« فى يوم مشئوم ، فى بلد مجهول ، جرى دم الشهداء على أديم الغبراء ، وظل سحابة يومه شاهد الأرض للسماء ؛ وفى الصباح الباكر مر عابر السبيل ، فألفى الدماء قد استحالت إلى كلمات ، فأخذ يلتقطها بيد مرتجفة ويلقيها فى سلال حمراء وسوداء ... وهاؤم اقرأوا تلك الكلمات .... »

***

لقد قالوا للسان اصمت فتكلمنا

نحن القطرات المتساقطة من عيون الفناء ، وحيث سقطنا ستظل الحقيقة قائمة الى الأبد

إنما يعيش الانسان بالدم الذى يجرى فى عروقه ، فان مات شهيدا عاش الناس بما يلقيه من الدم فى عروقهم

لقد كذبت معاجم اللغة فى كلمتين : « قعقعة السلاح » وصوابها « قعقعة الدم »

ليس معنى الموت الموت دائماً ، فقد يكون معناه الحياة أحياناً

أليس غريباً أن نهتف للحق مرتين : مرة فى حنايا القلب ، ومرة من ثنايا الأرض ؟

لو أننا عدنا إلى حيث أتينا ثم خُيرنا فى مصيرنا ما اخترنا غير هذا المصير

لقد فهمنا حاجة الأرض فأطفأنا ما بها من ظمأ . . . .

أيها الثرى الجائع .... لقد أتخمك الشبع !

لقد قالوا لنا عيشوا فى معاقلكم فانطلقنا منها أحرارا لما أحجم القوم تقدمنا ، وحين أطفأ الناس أنوارهم أتينا لهم بالمشاعل

نحن مادة الحياة أينما حللنا ... ... عشنا فى القلوب فخفقت ، ولمسنا الأرض فنبضت . .

ليت الانسان يفهم أن للحياة معنى غير الذى دارت عليه أيام الأنعام ، والحياة بغير هذا المعنى لا معنى لها

انصتوا أيها الباكون حولنا واستمعوا ، فان قيثارتنا ترسل أنغامها السحرية

ان تفجرنا من القلوب أو جمدنا فى العروق فنهايتنا واحدة : الأرض مثوانا وهى الأم الرءوم

أليست تلك أرض الوطن ... ؟ لقد خالطنا حبها فاختلطنا برغامها وتوغلنا فى أعماقها وأضفنا الى تربتها عنصراً جديداً لن يزول إلى الأبد ... ... أليس فى كيميائها « المادة لا تفنى ؟ ... »

للمظالم البشرية سهام مسمومة وللنفس الشريفـــة دم كريم ... ... إن أصاب ذلك الدم سهم من تلك السهام أبت كرامته أن يعيش إلى جواره فيفلت من مكانه ناقماً عليه ثائراً على عداونه

جبلت نفس الظالم من صخر لا قلب له ولا دم . فهو ينتقم لتلك الطبيعة الناقصـة . فان صادف قلبا أرهقه ، وإن لاقى دما أهرقه .

لا تقوم فى نفس ابن آدم نزعة إلى الشر إلا ويكون مبعثها شيطان فيه . ولا يجيء منه الخير إلا يكون مصدره الانسانية فى الانسان . ونحن ـ وا أسفاه ـ نتيجة صراع بين النزعتين فى نفسين مختلفتين

تضافرت الفضائل فغلبتها التضحية ، وتنافرت الرذائل فجمعتها الأنانية

ياعابر السبيل.. اخلع نعليك ، فان الأرض التى تطؤها مقدسة !

يا عابر السبيل ... نحن غرباء مثلك ، مطاردون مثلك ، وقد أحاطتنا الحياة بهوانها حتى زجرتنا عن محيطها ، وقذفت بنا الى الأرض قطرة حارة وزفرة متأججة تحرق الأديم وتلفح

الوجوه . فان بلغتك أنفاسنا المحترقة نخذ من حرارتها قوة لأنشودتك ، ومن فيض آلامها املأ أنغامك سحرا وجلالا وروعة ... ...

يا عابر السبيل ... ... لا تخش أن يكون سبيلك سبيلنا وطريقك طريقنا ... فانما السبيل المجد وعر والطريق اليه شائك ، فلا تكتئب أو تحزن فمن وخزات ألمك تعيش الكرامة ، ومن زفرات بكائك يشتق الخلود آيته ...

نحن الورود الحمراء التى سقتها الدموع وأنبتتها الأهوال . ستعيش جذورنا فى أعماق الصخرة وتصمد أعوادنا المخضلة فى وجه العاصفة ، وتتفتح أكمامنا للأجيال فتملأ النسمات بأريج عاطر ينعش الأنف ويغذى القلب ويثير الفؤاد

لنا فى أذن الأجيال همسات ، أسمعوها يا هؤلاء لأولادكم وأحفادكم إن كان لكم ولهم آذان . واكتبوها على شغاف قلوبكم وقلوبهم بحروف من عصارة تلك القلوب . فان كانت دما نقيا رفعكم ورفعهم ، وإن كانت دما مارقا خذلكم وخذلهم

(اسكندرية) جورج وغريس

أحلام وذكريات

للآنسة فردوس مصطفى

من مشكاة الطفولة اللاهية الغافلة كان قلبى الخلى يطل على قوافل الحياة فيراها ويحس بها غير ما يراها ويحس بها الآن ، وكان احساسه بها حينذاك احساسا قوى الفطرة جامح الغفلة يبهره من قافلة الحياة تناسقها ومظاهرها غير مدرك سرها وجوهرها . وكان يرقبها طوال الأعوام الثلاثة عشر ، حتى إذا ما تحول إحساسه بها الى بعض ادراكه لها نشأ عن هذا الادراك الحسى شعور جديد دفع به إلى السير مع القافلة ، فاندمج فيها ولم يعد يراها ، ولكنه بدأ يعرف سرها ويدرك مداها . وعند ما أذكر أحلام الأعوام الثلاثة عشر ، وقد كانت كلها أحلاما ، أشعر بالماضى يجذبنى نحوه وبالحنين يعاودنى اليه ؛ فأحلام الصغار وأمانيهم أسباب تصل ما بينهم وبين الحياة بسبائك من الذهب ، ولأحلام الكبار وأمانيهم أسباب تصل ما بينهم وبين الحياة بحبائل من النصب ، ويا شد ما يهفو القلب الى القفزات المرحة فى رحبة المدرسة ، والى تلك الدمى المتراصة فى الدار من مختلف اللعب ، والى فساتين الأعياد الزاهية الألوان ؛ كل ذلك له أثر فى القلب ، لأنه بدء علوقه وأول صباباته . فلما شب عن طوقه وبارح مشكاته أصبحت له صبابات غير تلك الصبابات ، وأمانى وأحلام غير تلك الأمانى والأحلام ، بذل فيها من دمه ونعيمه الشىء الكثير ، فثار على الحياة يثأر لدمه الغالى ونعيمه الذاهب ؛ وللقلب حين يثور فلسفة يحتار فى غاياتها العقل ؛ وللقلب حين يثور أفانين يقصر عن إدراكها الفكر ، ولكنها فلسفات وأفانين هى أقرب الى السماء منها الى الأرض ؛ تدمجه فى الروح الخالص فلا يشعر بما على الأرض من مادة طاغية ، ولا يحس من بهرج الحياة وظاهرها بسعادة خاوية . فهناؤه فوق المادة ، ونعيمه موصول بالسماء ، وبين الفينة والفينة يعاوده الحنين الى ذكريات الطفولة وأحلامها ، والى المشكاة وأيامها ، فيخيل اليه أنه يستطيع أن يطل على الحياة كما كان يطل ، وأن يرقب القافلة كما كان يرقب ، ولكن هيهات !

فردوس مصطفى

عجز التجارب

للأستاذ عبد الرحمن شكرى

ما زاد مَرُّ حياتى غير أشجانى   فَزَوَّدَتْنِىَ رجحاناً كنقصان
يا دهر لا تُنْسِنِى فى ضيق عادية   محاسن العيش من صبر وغفران
وقَوِّنِى بتجاريب أزاولها   فانها لم تزدنى غير عرفان
وكيف يُلْهِمُ خُبْرٌ صَبْرَ مصطبر   يَمْرِى له الْخُبْرُ عرفاناً بايهان
يزيده العمر من وَهْيٍ ومن كِبَرٍ   ما زاده العمر من خُبْرٍ بِحِدْثَانِ
فكيف ينفع تجريبٌ ومانحه   يوهى جلادة أعصاب وجثمان
بعض التجارب يُنْسِى بعضها زمناً   إذا تعاور لبَّ المرء ضدان
فان تيقَّظ فى تجريب طارقةٍ   فانما هو يقظانٌ . كوسنان
ضرورة العيش أن ينسى ليذكرما   يغـدو يعالج من أمرٍ له ثان
فالمرء ما عاش من حال لثانيـة   مَنَقَّلٌ بين نسيانٍ ونسيان
فإنْ تذكَّرَ أمراً واحـداً أبداً   قضى الحياة غريراً جد غفلان
وإن تناسى فلا نفعٌ لخبرته   وكيف يُجْدِيهِ مَنْسِيٌّ بغنيان
فان تذكر منسياً تبادهه   منه فجاءة ما يقضى الجديدان
كأنه مُستَجَدٌّ لم يُلِمَّ به   ولم يُحَوَّلْ إلى طبع وديدان
ورب طبع بلا خُبْرٍ وتجربةٍ   أسخى على المرء من خبر وعرفان
ذُخْرُ التجارب ذخرٌ لا رواج له   ولم يُخَصَّ بأرباح وأثمان
ذخر الأقاصيص مسحوراً ومُخْتَزَناً   فليس للعين منه غير ريعان
إلاَّ تجارب علمٍ يُستَجَدُّ بها   ما يملأ العيش من حسن وإحسان
لولا انتفاعك من عادٍ مُفَضَّلَةٍ   قد تجتبيها مع التجريب فى آن
لما خُدِعْتَ بأشباهٍ إذا اختلطت   فعادةُ المرء والتجريبُ أمران
والخبرُ ليس بنافٍ عادةً شنأت   ولا يُداوَى به من وهى أبدان
يزيدك الخبرُ علماً بالحياة وما   تُغْرِى به الناس من شرٍ وطغيان
حتى تسير على مجرى سجيتهم   فلا يزيدك فيها غير إمعان
فإن أبيت سجايا الناس من شمم   قضيت عيشك فى هم وأحزان
إلاَّ إذا ما لبست الدهرَ عافيةً   فهيأت لك من صبر وغفران

عبد الرحمن شكرى

السجينة

للأستاذ فخرى أبو السعود

لك الله كم ذا تطمحين وأعزف   وأثنيك عما تبتغين وأصرف
ويا نفس كم أزوَرُّ عما اشتهيتِهِ   وأُعنى بما لا تشتهين وأكلف
وأحجم عما رمتنى فيه مُقْدماً   وأُقْدِمُ فيما تكرهين وأسرِف
وأُبدى سوى ما تضمرين مكتَّماً   جوى لك فى الجنبين لا يتكشف
تُجِنِّين تهياماً ووجـداً ولهفة   وأُظهر أنى الزاهد المتعفف
وتخفين إشـفاقاً وأُبدى جِلادة   وأُغلُظ يا نفسى عليك وأُعنُف
وأكظم غيظاً قد أطاشك فرطه   وأُجمل للباغى المسىء وألطف
كأنك فى الجنبين منِّى سجينةٌ   تعـذَّب فى ظلمائها وتحيَّف
وتُكبح عما تشتهيه وتبتغى   وتُقمع أشواقٌ لها وتَشَوُّف
ظلمتك لم أظلِم سواك من الورى   وما من خلالى قسوة وتعجرُف
ظلمتك ، لا يا نفسُ بل تظلمينى   وأَصفح عما تُسلِفين وأَصْدِف
أما كل يوم مذهبٌ لك شائق ؟   أما كل حين مأربٌ بك مُلْحف ؟
أما كل آن غايةٌ إثْرَ غاية   أُكلَّفُ فى إدراكها ما أُكلَّف ؟
وسيان محمودُ العواقب نافع   لديك ومذمومُ المغبة مُتْلِف
أما تشتهين اليوم ما يُجْتَوى   ويُقْلَى لديك اليوم ما كان يشغَف ؟
وهل أنا مُسطيعٌ رضاك لو أنني   على العالمين الحاكم المتصرف ؟
ولو أنني عمرى أُجاريك لم أَعِشْ   عن النَّهج إلا حائداً أتعسَّف
كلانا أيا نفسى بلاءٌ لخدنه   نعم وكلانا ناقم ومعنِّف
نعيش كأنَّا اثنان لم يتعارفا   وما لهما فى الدهر شمل يُؤَلَّف
ظلمتك خدناً صاحباً وظلمتِنِى   فعلَّ فراقاً آتياً هو أنصف

فخرى أبو السعود

أغنيــــة *

بين يدى الشمس تشرق تحت السحاب

للأستاذ ابراهيم ابراهيم على

وجهُ منْ يا فجر هذا ما بدا ... من وراء الغيب فى الأفق الجميل ؟!
سحَرَ الطيرَ ، فغنّى وشــدا ... وترامت بهجة الدنيا تسيل
لهبٌ يندى على الكون ندى ! ... ناضر الجمرة كالخد الأسيل !
وجمالٌ فى جمالٍ فى جمالْ

ية للحق فى عليــائها ... تختفى فى السحب شيئاً وتبين
يقف العقــل لديها تائهاً ... وهى أم العقل والصبح المبين
غيمة واحــدة تلهو بهـا ... تحجب الغرّاء حيناً بعد حين
أفسحرٌ ، ليت شعرى ، أم دلال ؟

أفهزلٌ ذاك يا أم الحيـاه ؟ ... لعبٌ فى الأفق، لهوٌ فى السحاب !
ها هو الكون جميعاً يا فتاه ... يرقب الأضواء من خلف الحجاب
يسكبُ النور ، ولكن لانراه ! ... ثم يبدو من ثنيّات الضباب
فى العلا نورٌ وفى الأرض ظلال !

بل هو الجدّ ، ولا هزل هنا ! ... بل هو الحق ، ولا حق سـواه
بل هو الله ، تجلى ودنا ... وتباركتَ قديماً يا إله !
تبعث الشمس كأطياف المنى ... كالرؤى يوماً ، ويوماً كالمهاه
وجمالاً فى جمالٍ فى جمالْ

(قليوب) ... ابراهيم ابراهيم على
المحامى

حنين

للأستاذ رفيق خورى

واهاً على زمنٍ ما كان أقصرَهُ ... فديتُهُ بدمى لو صانه الزمنُ
نفضتُ منه يدى والحرصُ يُمسكه ... والمرء حيثُ أراد الدهر مرتهَنُ
إن الذين دعتهم نيّــةٌ قذُفٌ ... سر الضمير ، وقد فارقتهمْ عَنُّ
لا يستجيبون للمضنَى ، فدىً لهمُ
نفسى ، وكنتُ إذا ناديتُهمْ أَذِنوا (1)
أكلما لاح برقٌ من ديارهمُ ... أجابه من دموعى عارضٌ هتن ؟
ما حيـلةُ المرء فى الدنيا بنافعةٍ ... إذا أُريد به الترنيقُ والحَزَنُ
ضَلّ الفؤادُ الذى طار الفراقُ به ... لهفى على هائم ما إنْ له سكن
يا ليت شعرى يدانينا السرور كما ... كنا ، ويجمعنا بعد النوى وطن ؟

حمص ... رفيق خورى

(1) أذنوا : أى سمعوا

القصص

صور من هوميروس

١٦ - حروب طروادة

فزع الآلهة . . .

للاستاذ دريني خشبة

قلق زيوس من اعتزام أخيل اقتحام الحرب

وكيف لا يقلق سيد الأولمب وكل من الفريقين يصلى له ، ويطلب منه العون ، ويتوسل اليه أن يُظفره بعدّوه ، فتنجاب هذه الغاشية التى صرّعت الرجال ، وضرجت أديم الثرى بدماء الأبطال ! !

ودعا اليه أربابه فعقد منهم مجلساً للمشورة ؛ فانتظمهم ديوان الأولمب ، وحفلت بهم ذروة جبل إيدا ، وطفق الاله الأكبر يقلّب الرأى على جميع وجوهه ، ويبحث المسألة من شتى أطرافها ، والأرباب فيما بين ذلك يحملق بعضهم فى وجوه بعض ، وتضطرم فى أفئدتهم نيران العداوة والبغضاء ؛ لأنهم كانوا جميعاً وقلوبهم شتى ! فهذا فريق منهم يعطف على طروادة ، ويشيد بذكر طروادة ، بل منهم من اشترك فى بناء طروادة وإقام أسوارها ، وتحصين صياصيها ؛ والطرواديون من أجل هذا قد أخلصوا العبادة لهؤلاء ، وأقاموا لهم الهياكل المشيدة ، والمعابد المنيفة ، وهم فى طويل الأحقاب والآباد ما يفترون عن عبادتهم والأخبات لهم ، وتقديم القرابين والضحايا بأسمائهم

وفريق آخر من الآلهة يعتبر الشعب الهيلانى شعبه المخلص ؛ فهو لذلك يحدب عليه ، ويرجو الخير له ، وهو أبداً يستأذن سيد الأولمب فيحارب فى صفوفهم ، ويشد أزرهم ، ثم الهيلانيون يخلصون العبادة لهذا الفريق ، وهم أبداً يتملقون بهم ، ويقيمون المعابد لهم فى كل حنية من جبالهم ، وبكل منعرج من شعابهم ، ومنهم كل مثّال صناع اليد ، مرهف الحس ، رفيع الذوق ؛ وهم لذلك قد ملأوا المعابد والهياكل بتماثيل الآلهة ، حتى ما تقع العين على أجمل منها !

وفريق ثالث لا الى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، ينقم على هذه الحرب الشعواء التى سُعّرت لغير ما سبب يستأهل كل تلك الضحايا ويستحل كل هذه المهج ؛ وهذا الفريق يحنق على طروادة ويحنق على هيلاس على السواء . ويود لو يأذن سيد الأولمب فيزلزل بهما الأرض ، أو يرسل عليهما كِسَفاً من السماء ، فلا يبقى على أحد منهم أبداً ! !

واتفق الآلهة على أن يذهب فريق منهم فيكون فى صفوف الطرواديين يرشدهم ، ويدفع عنهم عادية أخيل ، ثم يذهب فريق آخر فيكون فى صفوف الهيلانيين يفل من نشاطهم ، ويكسر من سورهم ، حتى تكون الحرب بين الجمعين سجالاً ؛ وإلى أن يرى الآلهة فى شؤون خلقهم رأياً آخر

وانطلقت حيرا مليكة الأولمب ، ومينرفا ربة الحكمة ، ثم هرمز رسول الآلهة وقائد الأرواح إلى هيدز . وڤلكان الحداد وإله النيران ، الذى فضحه مارس فى زوجه ، ونبتيون رب البحار العتيد الذى روّع الطرواديين فى هذه الحرب أيما ترويع انطلق هؤلاء فكانوا فى صفوف الهيلانيين

وانطلقت ڤينوس إلى صفوف الطرواديين ، وراح فى أثرها أپوللو وأمه لاتونا وديان ومارس وإكسانثوس ، وفئة غير هؤلاء من عشاق ڤينوس

وانبث الآلهة ينفخون فى أبواق الحرب

وصاح أخيل فى شياطين الميرميدون صيحة داوية . زادتها مينرڤا قوة ، فما تركت فؤادا إلا زلزلته ، وماغادرت نفسا إلا تركتها ترجف من خوف وفزع

وكان أپولو ينظر الى أخيل فيتميز من الغيظ ، ويود لو يبطش به بغدرة من غدراته التى أودت بپتروكلوس من قبل ، ولكنه أحس بفرائصه ترتعد ، وفقاره يندك من الرعب ، لما رأى حول

أخيل من هذه الأرباب المتعطشة للدماء ، لا سيما هذا الإلـه الوحش نپتيون الذى يرسل من عينيه بركانين من الغضب يضطرمان اضطراماً

وآثر أبوللو أن يستخفى فى زى ليكاون بن بريام وصورته ، وأن يذهب من فوره إلى إينياس العظيم مستشار طروادة وأبسل شجعانها بعد هكتور ، فيثيره على أخيل ، ويلهب فيه نخوة الجاهلية التى ســـداها التفاخر بالأنساب ، ولحمتها التباهل بالأحساب ، والتبجح بأنا ابن من سمك السماء ، ودحا الأرض ، وأنبت فيها من كل زوج بهيج !

واستطاع أبوللو أن يهوّن على إينياس من شأن أخيل ، وأن يحقر فى ناظريه خطبه ، واستطاع ببيانه الموسيقى ، وطلاقته السحرية ، أن يدفعه إلى ناحية أخيل ، الذى وقف مكانه يقذف الرعب فى قلوب الطرواديين وأحلافهم ، باحثاً عن غريمه البغيض ، هكتور بن بريام ، يود لو يخلى بينه وبينه فيبطش به ، ويشفى هذا اللظى الذى يتأجج فى جوانحه ، بما قتله أعز أصدقائه ، وأحب الناس اليه

ووقف إينياس تلقاء أخيل ، فتبسم زعيم الميرميدون ، ووعظ المحارب أن ينثنى فلا يلقى حتفه ، وذكره بما حدث بينهما قديماً ، حين ساق أخيل قطعان اينياس السائمة فى سفح جبل إيدا ؛ وما كان من فرار اينياس ، هذا الفرار المضحك ، الذى أشمت به الأعداء ، وأثار عليه سُخرية الأصدقاء والأوداء !

ولـكن اينياس ، الذى كان ما يزال مأخوذاً بسحر أبوللو وموسيقاه ، أبى واستكبر ، وهز أعطافه ، ثم أخذته العزة بالإثم ، وانطلق يقذف فى وجه أخيل بهذا التفاخر الذميم الذى لا يجدى فى حلبة الحرب نفعاً ، ولا يجر على صاحبه مغنما ، يوم لا حكم إلا للمرهف البتار ، ولا قول إلا ما يقول الفيلق الجرار

والتحم المحاربان العظيمان !

وارتطم الصخر بالصخر ، وثار النقع فى الميدان وأظلم حتى قد تهاوت كواكبه ، ونظر الجمان نظرة القلق الحيران ، وأخذ الذهول يضرب أطنابه على الســاحة الحمراء ، ونظروا فرأوا اينياس يستجمع كل قوته ، ويقذف برمحه العظيم فترده درع ڤلـكان ، وإن تكن الطعنة قد شـقت منها طبقتين ، وفترت ، فلم تصل الى فؤاد أخيل

وهنا !

اشتعلت نيران الدنيا فى عينى زعيم الميرميدون ، وذاب فى أعصابه حميم من الغضب ، وأرسل بدوره رمحه الهائل يرن على درع اينياس فلا يصيبه بأذى ، ولـكنه ، لعظم الطعنة ، يصرعه ويطرحه فوق أديم الثرى فريســة رخيصة لغوائل الردى ، وضربات الرقاق البيض

وينحنى أخيل من عربته الفخمة ، فيتناول حجرا عظيما ، قد يتعب عشرة من صناديد الرجال فى حمله ، ثم يرفع الحجر ليقذ به جمجمة اينياس . . .

ولـكن ! . . . . . .

لا ! ينبغى ألا يقتل إينياس ، لأنه ابن زيوس سيد الأولمب ، وهو لو قتل لم يرض به أبوه ألف ألف أخيل ، وألف ألف ميرميدون كملأ أخيل ! . . .

هكذا قدّر نپتيون ! وقُتل نپتيون كيف قدر ! !

لقد أرسلها إلى حـيرا ، مليكة الأولمب التى كانت قريبة تشهد الحدث الأعظم ، قولةً غير صادقة إلا فى زعم نپتيون !

وعارضت حيرا فى تدخل نپتيون ، ولـكنه ، لشـدة حبه أخيل ، لم يسمه إلا أن يسرع إليـه فينشر أمام ناظريه ضبابة كثيفة حجبت عنهما هدف إينياس ، ثم انكفأ يحمله بعيداً من أخيل ، حتى انتهى الى صفوف الطرواديين الخلفية ، فسجاه على العشب الأخضر ، وأخذ فى نصحه ألا يجازف بنفسه أمام أخيل كرةً أخرى ! !

وكان الجمان ينظران إلى إينياس محمولاً فى الهواء . . فيأخذ العجب منهما كل مأخذ ! !

***

وامحت الضبابة ، وبطل السحر ، ونظر أخـيل فلم يعثر لأينياس على أثر ، وشـدهه أن ينجو خصمه من قتلة محققة ، فيُلقى فى روعه أن إينياس سليل الآلهة كما ادعى منذ لحظة ؛ ثم يشدهه أكثر تجابن الميرميدون والهيلانيين على السواء ، بعد إذ رأوا إلى إينياس محمولا فى الهواء !

ويحضهم أخيل على خوض المعمعة ، ويستطيع بحماسياته أن يلهب فى صدورهم روح الاقدام . . .

ويكون هكتور فى هذه اللحظة قائما فى جنوده يحضهم هو الآخر ويطمئنهم أن الآلهة معهم فلا يخافون ولا يحزنون . ويراه أخيل فيخفق قلبه ، ويعلو صدره ويهبط كأنه الخصم الغاضب . ويدفع عربته نحوه ، فتندفع الخيل ، وكأن النيران تنـدلع من عيونها وأنوفها . . . .

وكان أبوللو إلى جانب هكتور ، فلم يرض له أن يلقى أخيل

الذى ما خاض المعمعة الا ليثأر لصديقه بتروكلوس

وكاد هكتور لا يأبه لكلام أبوللو ، وتقدم فعلا ليبق حيل ، ولكن الآله الكبير زجره زجراً شديداً ، ثم أمره بالتقهقر فى الحال ... فانسحب بطل طروادة ، وترك أخيل يحرق الأرّم مكانه ، إذ أفلته هذا الصيد الثمين ! !

وانقض أخيل يشفى غيظه بقتل عشرات وعشرات من أبطال طروادة فصرع إيفتيون العظيم ابن عذراء البحر ، ثم ثنّى بالكمىّ الكبير ديموليون ، شج رأسه فانبثق الدم يتفجر منه ، وبرز المخ ، وذهبت روحه إلى هيدز ! ثم ثلّث ببطل الأبطال هبوداماس ، شكه شكة فتركه يخور كخوار الثور ، مسوقا إلى مذبح الآلهة ... ثم انقض على پوليدور بن پريام ، ملك طروادة ، فطعنه فى ظهره طعنة صرعته ، ونشرت ظلام الموت فى عينيه ، فهوى إلى الأرض يئن أنينا مؤلما ، أبكى الجند ... وأحزن أخيل نفسه...

لقد كان پوليدور أحب صغار پريام اليه ، وكان يجرى فيسابق الريح ، وينازل القروم الصيد فيصرعهم عشرات ووحداناً ، فيا حزن أبيه الملك عليه بعد اليوم ! !

وكأن ظلام الموت الذى خيّم على عيني پوليدور امتد حتى ظلل عينى هكتور ! ولم تكن الحياة رخيصة فى نظر بطل طروادة مثلها اليوم ، فقد فجعه أخيل فى پوليدور ، فلا بد أن يفجع ذيتيس وپليوس ، والدى أخيل ، فى أخيل نفسه ...

وألهب جياده فاندفعت بعربته ناحية أخيل ...

واستبشر زعيم الميرميدون حين رأى هكتور يسرع ناحيته قدما ، وذكر أنه قاتل بتروكلوس فدارت به الأرض ، وذكر أن بتروكلوس ينتظر ثأره ميتا ولا بد أن يعود أخيل اليه به ، فتقدم نحو هكتور وقال له :

« هلم يا بن پريام فتعجل قتلتك ، وودع الحياة الحلوة التى لن تهنأ بها بعد اليوم ! ! » وتجهم هكتور ، وكلم أخيل فاعترف أنه أقوى منه ، وأطول فى مواقف الحرب باعاً ، ولكنه حذره من الغرور ؛ « ومن يدرى ؟ ! هل أوحت اليك السماء أنك تقتل هكتور ؟ وهل أخذت على المقادير والأقضية عهداً ألا يصرعك هكتور ... » ثم انقض بن پريام فأرسل حربته الظامئة إلى صدر أخيل ، ولولا أن مينرفا كانت إلى جانبه تحرسه ، ولولا أنها زحزحته قليلا فتفادته الطعنة ... لكان أخيل حديثاً من الأحاديث

وبهت أخيل ، ثم صاح صيحة رجف لها جانب الجبل ، وجاوبتها أسوار طروادة ، ورددت أصداءها أجواز السماء ؛ وانقض على هكتور يود لو يقتلعه من عربته فيخبط به الأرض ، وتذهب روحه بعدها إلى الجحيم ! ...

وكان أبوللو إلى جانب هكتور هذه المرة ، كما كان إلى جانبه دائما ؛ وراع الآله الأكبر أن يهجم أخيل تلك الهجمة التى يعجز عن مثلها مارس الجبار نفسه ...

وذهل أبوللو ماذا يصنع ، ليبقى بطله من رمح أخيل ؟ !

ثم ذكر ما صنعه نپتيون من أجل اينياس ، فنشر ضبابة كثيفة أمام ناظرى أخيل ، وتقدم إلى هكتور فحمله ، وذهب به الى حيث يكون بنجوة من مصير محزن ، كان يوشك أن ينتهى اليه . . . . .

وظل أخيل يطعن الضبابة ، مشدوه اللب حيران ! !

طعنها مرة ، ثم مرة ثانية ، ثم ثالثة ، ثم ما كاد يطعنها الرابعة حتى امحت وبطل السحر ، وانكشف له الميدان يضج بالجند ، ويمج بعدة الحرب ، ولكنه مع ذاك ، وغير ذاك . . . . خلو من هكتور ! ! . . . .

« جميل يا هكتور ! ! صل للآله الذى أنقذك اليوم منى ! صل لربك أبوللو ! لقد أنجاك من قتلة بينة ، وموتة محققة . . . صل له يا هكتور ! ولكن ثق أننا سنلتقى بعدها ، ولا أدرى هل ينقذك الآهك عندها ؟ ! إن لى أربابى التى تحمينى ، والتى إن فوجئت بغادر مثلك فهى تنجينى . . . . . سنلتقى يا هكتور . . . . فصل الآن لأبوللو واشكر له . . . . . »

* * *

وثار أخيل فكان زوبعة !

وطفق يصرع أبطال طروادة ، فطعن دريوپس طعنة اخترمت حياته ، ثم جندل ديماخوس وأسرعت روحه إلى أمواج ستيكس المنصهرة ، وتقدم فأطاح رأس دردانوس العتيد ، وجال جولة هنا وجولة هناك ، فكانت المنايا تتعثر أنىّ ذهب ، وأيان صار ، فهذا تروس البطل ملقى على الأرض والدم ينبثق من كبده ، وموليوس الصنديد زائغ العينين يتوجع مما ألم به ، وإخكلوس ابن أجينور تساقط نفسه حشاشات ، ثم ديكاليون الذى دوخ الجيوش وروع الأبطال ، وبث اليتم فى كل دار ... ها هو ذا فوق الثرى صعيداً جرزاً ، وجثماناً يتدفق الدم من جراحه ... نهاية حمراء لحياة حمراء ... كلها حرب وتقتيل !

ورجموس ! !

البريد الأدبي

كتاب عن المسألة الحبشية

أثارت المسألة الحبشية واعتداء الاستعمار الايطالي على الحبشة نشاط المؤرخين والكتاب كما أثارت اهتمام الساسة والرأي العالمي، وظهرت في الآونة الأخيرة عدة كتب ومباحث تاريخية وسياسية واقتصادية وعسكرية عن إيطاليا والحبشة وكل ما يتعلق بتلك المشكلة الخطيرة التي ما زال يضطرب لها العالم كله منذ أشهر. وكان مما ظهر أخيراً في ذلك الموضوع كتاب للكاتب الانكليزي اميل بيرنز عنوانه «الحبشة وايطاليا» (١) واميل بيرنز كاتب اشتراكي، وكتابه حملة قوية على الاستعمار الغربي، وأحدث فوراته ونزعاته أعني الاستعمار الايطالي. ويقول الكاتب في مقدمته إنه يقصد بما يكتب أن يبين الأسباب الدفينة التي تجثم وراء الحوادث ووراء ستار المظاهر الدبلوماسية؛ والحوادث الظاهرة هي اعتداء ايطاليا المسلح على الحبشة، وعمل انكلترا وفرنسا السياسي في عصبة الأمم أو خارجها، وليس هذا العمل في نظر اميل بيرنز سوى مؤامرة استعمارية

ويستمد اميل بيرنز أدلته من حوادث التاريخ الحبشي منذ سبعين عاما؛ فتاريخ الحبشة يحفل خلال هذه الحقبة بمشاريع انكلترا وفرنسا وايطاليا ودسائسها المستمرة، وكل تغالب الأخرى في سبيل الحصول على النفوذ الأوفر في الحبشة؛ والرأسمالية الاستعمارية من وراء السياسة تحاول أن تضع قدمها في تلك الأرض الغنية. وليس عمل إيطاليا الا اعتداء في سبيل الاستغلال والسلب؛ ذلك أن أحداً في العالم لم يصدق أن إقدام إيطاليا على اتخاذ هذه التدابير العسكرية كان من باب الضرورة والتحوط وليست لها صبغة اعتدائية، وأنها ليست إلا ضماناً للسلام والأمن ضد أمة همجية، ولم يدهش إنسان بعد ذلك أن يرى هذه الاجراءات تتخذ فجأة صبغة الغزو المسلح، وأن تتحدى إيطاليا رأي العالم المتمدن كله، ولم تقم الدول الاستعمارية الأخرى بعمل حاسم لمنع هذا الاعتداء، وإذا كانت قد فعلت شيئاً فذلك لأن الموقف النبيل الذي وقفه النجاشي كان مثاراً لاعجاب العالم وعطفه

وقد كانت الحبشة فريسة الاعتداء المدبر، وكان لايطاليا أن تحمد الفرصة السانحة من كل وجه وخصوصاً لأن موقف الحكومة القومية الانكليزية في تأييد سياسة النازي (الهتلريين) في ألمانيا قد دفع فرنسا إلى أحضان إيطاليا وانتهزت إيطاليا هذه الفرصة لتضمن تأييد فرنسا لها في افتراس الحبشة. بل لقد حاولت انكلترا أن تعمل على اقتسام الحبشة مع إيطاليا، ومن أجل ذلك قدمت مشروعها بالتنازل عن زيلع الى الحبشة

ويتناول المؤلف بعد ذلك العوامل الاقتصادية التي دفعت بالحكومة الفاشستية إلى اعتدائها، ويسرد الأدلة على أن «التمركز المالي» هو الذي يدفع الى هذه النزعة الامبراطورية ثم يتحدث بعد ذلك عن «الفاشستية وعصبة الأمم» ويبين لنا كيف أن الرأسمالية من وراء كل حركة وإجراء تعمل باسم

(١) Abyssinia anb Itaiy

رجوس بن پروس! الذي شد رحله من تراقية لينصر الطروادبين على بني وطنه... قائداً جموعه التي لا حصر لها؛ مؤلباً القبائل والأنخاذ على الأرض التي أنجبته، والآلهة التي نشأته.... لماذا؟ لا سبب معقول!! ولكنه طيش الملك وغروره وكبرياؤه... ولأن الهيلانيين لم يختاروه قائداً لهم في هذه المشؤزنة الزبون!!

لقد امتشق أخيل سيفه، وأصلته على رأس رجوس، ثم أهوى به، نخر الخائن يتشحط في دمه........ وانتهت بموته حياة ذميمة

وزلزل قلب أريثوذ... حارس رجوس وسائسه... فود لو فر بعربة سيده، لولا أن عاجله أخيل بضربة قدت أضالعه، وذهبت بروحه إلى حيث ذهبت روح مولاه......؟

(لها بقية) دريني خشبة

الأقليات وباسم الانتدابات ؛ وكيف أن الرأسمالية الخصيمة تحاول أن تقضى على أى مشروع للصلح يتضمن أى مغنم للرأسمالية الفاشستية ، وهذا بصرف النظر عن قضية الحبشة وعدالتها . والآن تسنح فرصة بديعة لسحق الفاشستية ونظمها الطاغية ، ولكن هل تنتهز الدول هذه الفرصة ؟ ويقول لنا الكاتب إن الواقع أن حكومة انكلترا القومية إن هى إلا حكومة فاشستية بمعنى الكلمة لا ينقصها سوى الاسم .

ويعرض المؤلف نظرياته وأدلته بقوة ووضوح ولا سيما فيما يتعلق بالمسألة الايطالية الحبشية ، ويسبغ على عرضه صبغة اشتراكية واضحة ولكن معقولة متزنة ، وكتابه يعتبر من خير الكتب التى أخرجت أخيراً فى موضوعه ، ويمتاز بالنسبة للشعوب الشرقية بأنه حملة قوية منظمة على الاستعمار وأساليبه تثلج صدر كل شرقى يرى أساليب الاستعمار الهمجية تعمل فى وطنه وأمته

ذكرى غزوة بدر الكبرى

تألفت بالقاهرة لجنة من الشباب للاحتفال بذكرى غزوة بدر الكبرى فى ١٧ من رمضان لأنها أول نصر حاسم فى تاريخ الاسلام . وستكون الحفلة برياسة الدكتور محمد حسين هيكل . ومن خطبائها الأساتذة الدكتور محمد حسين هيكل ، الشيخ عبد المجيد اللبان شيخ كلية أصول الدين ، السيد محمد الغنيمى التفتازانى ، الدكتور عبد الرحمن شهبندر ، محمد افندى عبد الباقى سرور نعيم ، الشيخ أحمد البهى مندوب الأزهر ، أحمد أفندى شوقى مندوب كلية الحقوق .

وسيكتب فى هذا الموضوع الأساتذة محمد جاد المولى بك ، أحمد حسن الزيات ، حفنى محمود ، محمد على غريب ، عبد الحميد المشهدى .

كتاب (محمد) للأستاذ توفيق الحكيم

كتب الأستاذ توفيق الحكيم رسالة إلى أحد أصدقائه الفرنسيين فى اكتوبر سنة ١٩٣٤ ، جاء فيها عن كتابه (محمد) ما يأتى : « إن كتابى عن محمد (ص) لا يزال فى طور التحضير والتهيئة ، وعسى أن أتمه فى الشتاء المقبل . وسأبرز فيه النبى الكريم متكلما بكلامه المأثور ، فى صورة تستوعب حياته المجيدة ، كما يتصورها الفنان ، لا كما يفهمها العالم والمؤرخ . . . »

الصقالبة فى الرواية العربية

الى الأستاذ المحقق محمد عبد الله عنان

قد قرأت لحضرتكم فى عدد الرسالة (رقم ١٢٦) مقالا تحت هذا العنوان ، وفيه عبارة لابن حوقل عن صقالبة الأندلس ، جاء فيها : « فنصف بلدهم (الصقالب) يسبيه الخراسانيون ويصلون ، والنصف الشمالى يسبيه الأندلسيون من جهة جليقية وإفرنجة وانكبردة وقلورية ، وبهذه الديار من سبيهم الكثير » . ثم استنتجتم من ذلك أن لفظة الصقالبة كانت تطلق على سكان هذه البلاد المذكورة ، والذى يغلب على ظنى أن هذه العبارة لم يرد بها ذلك ، بل المراد وصف الطريق التى كان يسلكها سبى الصقالبة ، حتى يصل إلى الأندلس ، فهل عند الأستاذ ما ينفى هذا الظن ؟

(قنا) عطيه الشيخ

الانسان والكون — آراء علمية جديدة

ألقى العلامة الطبيعى الانكليزى الأشهر سير چيمس چينس أخيراً محاضرة عن « الانسان والكون » حمل فيها بشدة على مادية العلم القديمة ، وقال إنه يعتقد أن الانسان ليس آلة صماء ، وانه يناضل فى الواقع من أجل مصيره ، وانه قد أحرز أخيراً نجاحاً لا شك فيه . بيد أنه ما زال عليه أن يناضل من أجل مركزه فى المجتمع ، فاذا أخفق فى هذا النضال فقد يستأصل ويقضى عليه كما قضى على أجناس وفصائل أخرى من قبل ، وفى هذه الحالة يكون الانسان ضحية جنس آخر من صغار المخلوقات ، ربما كان هو الميكروبات التى لا يراها لصغرها

وإذا نجح الانسان فى هذا الصراع واستطاع أن يظفر بتوطيد مركزه ، فان مواهبه وكفاياته قد تتسع وتزيد تدريجياً حتى يتحول إلى شىء آخير غير ما هو اليوم عليه وربما كان شيئاً أرفع مما هو عليه . وقد تختلف عنا سلالتنا بعد عشرة ملايين سنة كما نختلف نحن عن أسلافنا المنحطين منذ عشرة ملايين سنة . وشر ما يخشاه الجنس الانسانى هو الهزيمة والعدم ، وخير ما يؤمله هو أن يغدو قنطرة منسية للطريق إلى أشياء أسمى

وقد لاح فى وقت ما ان نظرية « النسبية » قد وضعت حداً لكل الآمال التى تساور الانسان فى جعل العالم أكثر رفاهة وسعادة وجمالاً وأكثر نبلاً وعدالة طبق مثله الخاصة

أما الآن فلدينا أسباب كثيرة تحملنا على العودة إلى اعتقادنا في أن الماضي والحاضر والمستقبل لها في الواقع معنى موضوعي وليست هواجس تهجس في عقولنا ، وبعبارة أخرى يجب علينا أن نعتقد أن الزمن إنما هو حقيقة مادية

واستعرض السير جينس بعد ذلك ما وصل إليه العلم في شأن « الذرة » وما يقال من أنه لا يمكن سير الذرات ، وأن سير الطبيعة يقوم على غير نظام وتقرير سابق ؛ ومن رأيه أن العلم عاجز عن أن يقدم أي تحديد أو أي تدليل على مسألة « الجبر » القديمة ؛ وقد يكون الانسان أو لا يكون آليًا ، ولكن العلم لا يستطيع أن يبرهن على أنه ليس آلياً ، ثم هو لا يستطيع أن يبرهن أنه آلي قال ؛ وإذا استعرضنا تاريخ العلوم في جملته ، فانا نرى المعارف العلمية ما تزال ترغم الانسان على أن يخفض من تقدير نفسه ومركزه في الكون حتى بدء القرن الحالي ، أما أنا فأرى أن التيار قد أخذ يتطور ، واننا على ضوء المعلومات التي ترتبت على نظرية النسبية والكمية ، نستطيع أن ننظر إلى مركزنا في شيء من التفاؤل لم يسمح به العصر الفيكتوري »

شرعية الانتحار

يعرض في القريب العاجل على مجلس اللوردات الانكليزي مشروع قانون فريد في نوعه ، يراد به تقرير شرعية الانتحار ، أو بعض أنواع القتل ؛ ففي العهد الأخير وقعت في انكلترا عدة حوادث رنانة مؤثرة ؛ قتل فيها الابن اباه ، والزوج زوجته ، والعاشق حبيبته ، ولم يكن قتلا عاديا أو له صفة الجريمة ، بل كان قتلا ميمثه الاشفاق والحب ، وكان في الغالب بناء على طلب المجني عليه ؛ وكان المجني عليه أو القتيل في معظم الأحوال يشكو مرضا لا يرجى برؤه ويعاني آلاما مروعة يريد أن يتخلص منها بالخلاص من حياته ، فيطالب الى أحب الناس اليه أن يقوم بهذه المهمة الاليمة . وقد وقعت عدة حوادث من هذا النوع ، وقدم « الجناة » أو الذين ارتكبوا القتل بهذه الطريقة الى القضاء فحكم القضاء في الغالب بالبراءة إزاء الظروف المؤثرة التي وقع فيها القتل ، وإزاء انعدام نية الجريمة من جانب المتهم ولكن بعض « الانسانيين » وأنصار هذا النوع من الاعدام يخشون أن يقسو القضاء فيعامل المتهمين في هذه الحوادث بالشدة وينال قصاصه المؤلم ، لأن الانتحار يعتبر في القانون الانكليزي جريمة ويعاقب كل من اشترك فيه أو ساعد عليه ؛ ولذلك رأى بعض اللوردات أن يقدم الى المجلس مشروع قانون يبيح القتل في مثل هذه الأحوال ، وقد روعي في هذا المشروع أنه توجد حالات أليمة يشتد فيها المرض والألم على الفريسة فيتمنى كل من حولها لها الخلاص من هذا العذاب ، ويعتبرون من واجبهم المقدس أن يلبوا طلبها في الاجهاز عليها وانقاذها من ذلك الجحيم ؛ ولكن روعي من جهة أخرى أنه قد توجد حالات يتمنى فيها أهل المريض المعذب وفاته بسرعة ليحظوا بالارث والثراء ؛ وقد ينتهزون فرصة آلامه ، وهذيانه فينتزعون منه اقراراً كتابياً بطلب الموت ، ثم يجهزون عليه ؛ ويتذرعون بهذا الاقرار للافلات من العدالة ؛ ففي هذه الحالة يتطلب القانون الجديد أن يقع مثل هذا الاقرار على يد موظف عمومي ، وذلك بعد أن يصدر الطبيب المختص قراره بأن المريض لا يرجى برؤه وانه يعاني آلاما لا يمكن احتمالها مع الحياة ؛ ويشترط مشروع القانون أيضا أن الذي يقوم بعملية الاعدام أو الاجهاز على الفريسة طبيب مرخص له بذلك

وهكذا يراد أن يشرع حق الانتحار ، وأن يمنح حق الاعدام في ظروف معينة ؛ وسنرى ما اذا كان مجلس اللوردات يقر هذا القانون المدهش

معرض الفن الصيني

افتتح أخيراً في لندن في « برلنجتون هاوس » معرض الفن الصيني الذي كانت تتخذ العدة لافتتاحه منذ أشهر . وقد عرضت في هذا المعرض تحف وآثار صينية نفيسة يرجع الكثير منها إلى نحو ثلاثة آلاف سنة . ومعظم هذه التحف الرائعة ملك للصين ولكن الحكومة الوطنية الصينية ارتضت أن تعيرها للسلطات الفنية البريطانية بعد مفاوضات طويلة ؛ ونقلت المعروضات في طرادة بريطانية مسلحة وأخذت إلى لندن لتعرض هنالك على أنظار العالم المتمدن . وتدل هذه التحف على أن الصين كانت قبل آلاف السنين تتمتع بحضارة رائعة تضارع في ازدهارها وروعتها حضارة مصر القديمة ، وتدل على أن الفنون الصينية بلغت مبلغا عظيما من الافتنان . وقد كان الابتكار يقترن لدى الفنان الصيني مع الصبر وتخير النماذج الفائقة . وأقدم التحف المعروضة هي آنية للمراسيم الدينية صنعت من البرونز ويرجع صنعها إلى سنة ١٧٦٦ قبل الميلاد ؛ وكان البرونز أول مادة استعملت في الفن الصيني ؛ ولم يبدأ النحت البوذي الا في القرن الرابع أو الخامس الميلادي . وقد كان افتتاح المعرض الصيني حادثا فنيا عظيما في انكلترا ، وهرعت الجماهير الحاشدة لرؤيته من أنحاء الجزر البريطانية وأمم القارة الأوربية

الكتب

كتاب التشريح المرضى والجنائى

تأليف الدكتور محمد زكى شافعى

بقلم الدكتور محمد الرافعى

لا أسهل فى العلوم من اختصارها ، ولا أيسر من اخراج الكتاب الضخم مُحَصَّلا فى جزء لطيف . وقد كانت هذه طريقة علمائنا المتقدمين ؛ فليس من كتاب ذى خطر إلا وقد اختصروه مرة أو مراراً ، يريدون إما تقريبه من الأذهان وإما حصر فوائده ، وإما جمله كالذكرات . وقد يعجز بعض العلماء عن التأليف ويريد مع ذلك أن يكون مؤلفاً فيجد مادته من الكتب المطولة يؤلف منها ما يسميه المختصر أو الوجيز أو نحو ذلك . وهذا كله سهل ، بل بعضه أسهل من العبث إلا فى الطب ، وخصوصاً حين يكون الاختصار فى فرع من فروعه التى اختص بها علماؤها كهذا الكتاب الذى نحن بصدده

إن وضع كتاب مختصر فى فرع من الفروع الطبية وخصوصاً باللغة العربية هو عمل من أشق الأعمال ، وأدقها إذا أريد أن يكون الكتاب مع اختصاره وافياً فى موضوعه ، محققاً لفائدة الأصل المطوَّل ، جامعاً لفوائد جديدة تعطى الكتاب حكم التأليف مع تسميته المختصر . ومادام الطب شرحا للجسم المعجز فى تركيبه وأعماله ودقائقه المحيرة للعقول ؛ فالتأليف فيه لا ينتهى ، واختصار المؤلفات فيه لا يكاد يوفَّق إليه إلا النوابغ المحيطون أوسع إحاطة ، والمتمرنون تمرينا طويلا ، والمتتبعون لكل جديد

ومن هؤلاء مؤلف كتاب (التشريح المرضى والجنائى) الدكتور محمد زكى شافعى ، مدير المكتب الفنى بمصلحة الصحة العمومية بمصر . وقد قال فى مقدمة كتابه هذا : « لقد اشتغلت حوالى العشرين عاما بالطب الشرعى ، ولا أزال أعمل الآن مراجعة بعض الأعمال الخاصة به ، وكثيرا ما استرعى نظرى أن الحاجة ماسة أشد مساس الى كتيب خاص بالتشريح المرضى والجنائى ، يرجع اليه الطبيب الكشاف إذا أعوزه الأمر للاطلاع العاجل ، فانه كثيراً ما يجد نفسه فى مأزق حرج ، إذ يطلب إليه – وهو بعيد عن مراجعه – الفصل فى مسائل فنية دقيقة الخطورة ، يتوقف على الاجابة عليها مصير متهم قد يكون بريئاً

ولقد كنت أشعر بهذه الحاجة فى أثناء ممارستى للتشريح ، ولا سيما فى الجهات التى أكون فيها بعيداً عن مراجعى ، وكل الأطباء يدركون دقة هذا الموقف

ولقد عرضت على زميلى « الدكتور لبيب شحاته » أن نعمل على سد هذا النقص ، فوضعنا معا هذا الكتاب ، وتوخينا فيه أن يكون عملياً أكثر منه نظريا ، وجعلناه واضح العبارة ، سهل المأخذ ، حتى ينتفع به كل مشتغل بالطب الشرعى ، وانتقينا أحدث المعلومات ، وأرجحها قبولا لدى جمهرة الأطباء الشرعيين ولذلك اضطرتنا الحال إلى الاطلاع على مراجع عديدة علاوة على المذكرات الشخصية »

ومع أن الكتاب كما يصفه حضرة مؤلفه فقد وقع فى ٤٩٠ صفحة ، وبلغت المراجع التى اعتمد عليها واضعاه عشرين مرجعا ، يضاف اليها اختبار المؤلف وتحقيقه مدة عشرين سنة ، وذلك فضلا عن رجوعه فى بعض مسائل كتابه الى كثير من الأساتذة المختصين ، بحيث جاء الكتاب عظيم الفائدة للمشتغل بالطب الشرعى ، وللطبيب المشرح ، ولمن يتصلون بالحوادث الجنائية من القضاة ورجال النيابة والمحامين فهؤلاء جميعاً يهتدون فيه الى أدق المسائل الفنية بأيسر طريقة وأسرع وقت ، ويصيب كل منهم غرضه الفني أو القضائى . وقلما يحتاج مع هذا الكتاب إلى الأصول المطولة إلا فى التدريس ، على أنه فى التدريس ذو قيمة ثمينة إذا جمل للطالب كالتذكرة التى يدون فيها خلاصة علمه . هذا وإن ضم التشريح المرضى الى التشريح الجنائى فى كتاب واحد عمل فنى بديع لم يُسبق اليه .

وأنا وقد درست هذا العلم على الفحول من رجاله فى فرنسا ، لا يسعنى إلا أن أهنئ الدكتور محمد زكى شافعى ، ومساعده الفاضل الدكتور لبيب شحاته بكتابهما وعما وفقا فيه ، فهو توفيق يستحق التهنئة العلمية

الدكتور محمد الرافعى
خريج جامعة ليدن بفرنسا

لباب الآداب لابن منقذ

تحقيق وتعليق الأستاذ احمد محمد شاكر

للأستاذ محمد بك كرد علي

بنو منقذ أصحاب قلعة شيزر من عمل حماة فى الشام كانوا معروفين على عهد الحروب الصليبية بالفروسية والسياسة والأدب والأمارة ، وقد خلد أسامة بن منقذ (٤٨٨ ـ ٥٨٤ هـ) أحد رجال هذا البيت بأدبه ذكر آله فى التاريخ . ولما طبع له العلامة درنبرغ كتاب « الاعتبار » فى سنة ١٨٨٤ م بمدينة ليدن فى هولاندة اشتهر أسامة بين الأدباء فى الشرق والغرب ، لما حوى كتابه من أخبار البطولة والشجاعة ، ولأنه صُنّف على غير مثال . وقد طبع له درنبرغ أيضاً كتاب العصا وغيره فى باريز ، وعُني بجمع أخباره بالفرنسية وخدمه وأولع به

والآن طبع الأديب لويس سركيس فى القاهرة كتاب « لباب الآداب » لأسامة أيضاً ، وتولى تحقيقه والتعليق عليه الأستاذ أحمد محمد شاكر ، وحلاّه بفهارس الأعلام وأيام العرب والأماكن والقوافى ، وشكله تقريبا بالشكل الكامل ، فقرّب فوائده من يد المستفيد ، وأضاف الى ما طبع من كتب الأدب القديم سفراً آخر قال فى وصفه إنه من أجود كتب الأدب ، وإن فيه أقوالا من نثر ونظم لم يجدها فى كتاب غيره من الكتب المطبوعة

قسم المؤلف كتابه الى عدة أبواب فيها عظة وتعليم وأهداه لابنه الأمير مرهف ، وجعل أبوابه فى الوصايا والسياسة والكرم والشجاعة والآداب وكتمان السر والأمانة والتواضع وحسن الجوار والصمت وحفظ اللسان والقناعة والحياء والصبر والرياء والاصلاح بين الناس والتعفف والتحذير من الظلم والاحسان وفعل الخير والصبر على الأذى ومداراة الناس وحفظ التجارب وغلبة العبادة والبلاغة . وهناك فصول من كلام رسول الله والصحابة وغيرهم ، ومن كلام سليمان الحكيم وبرسين الحكيم وافلاطون ، ونوادر فيثاغورس وسيخانس ، ومحاسن شعر الحكماء ، وأبواب فى المديح والتشبيه ومشى النساء والخفر والشيب والاعتذار والعتاب والمراثى والغزل والحكمة . يبدأ المؤلف كل فصل بآيات كريمة ويشفعها بما ورد من الأثر ثم الشعر ثم أقوال الحكماء فى هذا المعنى

وذكر المعلق على الكتاب أنه وقعت فى طبعته هذه بعض أغلاط ، مع كل ما عانى فى تصحيحه ، جاء بعضها سهواً منه ، وبعضها من خطأ النظر ، وبعضها من الأغلاط المطبعية التى لا يتنزه عنها كتاب . ونحن نقيم من كلامه هذا عذرا لكل من أحيا كتاباً للقدامى ؛ وليس من الانصاف أن يحمل على كل من ارتكب خطأ من هذا القبيل بعد بذل الجهد ، فقد تسرع الناظر فى هذا الكتاب وقال (ص ٣٦) إن كتاب العصا هو كتاب القضاء لا العصا ، وليس فى جريدة مؤلفات أسامة كتاب فى القضاء وإنما هو كتاب العصا المطبوع . وذكر (ص ٢٢) (الأمير معين الدين أُنَر وزير شهاب الدين محمود) وليس فى التاريخ الاسلامى من اسمه أنر ، وإنما هو اتسز وهى كلمة تركية معناها لا لحم له ، أو الرجل الضرب الخفيف اللحم غير الجسيم . واتسز هذا هو مملوك جد مجير الدين أرتق بن محمود ابن بورى بن طغتكين ، وكان عاقلاً ديناً محسناً لعسكره (راجع كتابنا «خطط الشام» م ٢ ص ٢١) . ومن ذلك فى صفحة ١٩٢ (تباة البلد) قال ولعلها جمع تاب بوزن غاز وغزاة من قولهم تبا اذا غزا وغنم وسبى . ونحن أميل أن تكون (تُنّاة البلد) أى سكانه من تنأ تنوءاً أقام ، ويقولون (الطراء والتناء) أى النزلاء والمقيمون وهى الأولى بالمقام

وتسرع أيضاً (ص ٢٨) ونقل ظن بعض أهل العلم أن كتاب « الأدب والمروءة » الذى نشرناه فى مجلة المقتبس ، ثم ضممناه الى الطبعة الثانية من « رسائل البلغاء » فى سنة ١٣٣١-١٩١٣ هو لصالح بن عبد القدوس لا لصالح بن جناح كما ذكر ناشره أستاذنا العلامة الشيخ طاهر الجزائرى رحمه الله ؛ قال « ولعله ـ أى صالح ابن عبد القدوس ـ أخفى نفسه بهذا الاسم فى بعض الأوقات خوف الطلب » . والحقيقة أن كتاب الأدب والمروءة هو لصالح بن جناح ترجم له ابن عساكر صاحب تاريخ دمشق ، فقال إنه صالح بن جناح اللخمى الشاعر أحد الحكماء ؛ حكى عنه أبو عثمان الجاحظ أنه ممن أدرك الأتباع بلا شك ، وكلامه مستفاد فى الحكمة . وقد أخذ عنه الجاحظ فى نيسابور وقال عنه دمشقى ؛ ونشر ابن

النقد

٢ - تاريخ الاسلام السياسى

تأليف الدكتور حسن ابراهيم حسن

بعض مآخذ تاريخية وجغرافية

لأستاذ كبير

أتيت فى كلمتى السابقة على قليل من المآخذ التاريخية التى تورط فيها مؤلف « تاريخ الاسلام السياسى » وقد لحظ بعض الذين قرأوها أنه كان الأفضل ألا أورد هذه المآخذ مسرودة على نحو ما فعلت بل أن أوردها مقرونة بأسبابها الجوهرية . وأجيب عن هذه الملحوظة التى لها وجاهتها العامة بأن من المفيد فى نقد كتب التاريخ أن ينصب النقد أولا على الوقائع مجردة . فان التاريخ من الناحية التحليلية البحتة يقوم على الوقائع التاريخية التى هى مادته الأولية . وبمقدار تزود المؤرخ من هذه المادة الأولية وتمكنه منها احاطة ، وتقويما ، وفهما ، تكون متانة أحكامه التى يستنبطها وافتراضاته التى يذهب اليها ، والعكس بالعكس . وإذا فلا بأس أن أمضى فى كلمتى هذه فى إتمام ما أخذت فيه فى كلمتى السابقة من الأتيان على أجسم ما فى الكتاب من المآخذ التاريخية ، مقفياً على أثر ذلك بإيراد شىء مما وقع فيه المؤلف من الأغلاط الجغرافية ، والتاريخ والجغرافيا صنوان مؤتلفان ، وهما ظرفا الزمان والمكان لما يسمى بوقائع التاريخ

***

قال المؤلف فى ص ٣٤٠ فى معرض الكلام على الوقعة البحرية العظيمة المعروفة فى كتب العرب بذات الصوارى : « وفى سنة ٣١ هـ نشب القتال بين ابن أبى سرح وبين الروم تحت قيادة ملكهم قسطنطين فى البحر الأبيض المتوسط ، على مقربة من الاسكندرية ، وكان النصر للعرب فى هذه الحرب ، وقد عرفت هذه الموقعة بموقعة السوارى أو ذات السوارى » والمؤلف يخطىء هنا من حيث زمان الوقعة ومكانها ، فأما من حيث الزمان فالوقعة قد ذكر فى المصادر العربية أنها كانت سنة ٣١ هـ ولكن هناك رواية أخرى تجعلها فى عام ٣٤ هـ ، وقد ظهر من المصادر اليونانية أنها تؤيد الرواية الثانية ، وإذاً يتعين الأخذ بها واطراح الأخرى . وأما من حيث مكان الوقعة فالمصادر اليونانية تعينه فتجعله قريبا من ساحل آسيا الصغرى الجنوبى لا قريبا من اسكندرية مصر (انظر تاريخ العصور الوسطى لكمبردج ج ٢ ص ٣٥٣) والمؤلف لاشك يتابع فى كلامه هنا السير وليم ميور الذى يأخذ عن المؤرخ الانجليزى جبون ، وكلا هذين المؤرخين أصبح قديما ولا يصح التعويل عليه بصفة مطلقة

جاء فى ص ٣٧٠ عن وقعة الجمل المشهورة « ونشب القتال وعائشة راكبة فى هودجها على جمل يسمى عسكرا واقتتل الناس حوله سبعة أيام حتى صار كالقنفذ من النشاب » والصحيح أن وقعة الجمل لم تدم أكثر من سحابة يوم واحد . فان السبئية من أصحاب على أجمعوا انشاب القتال حتى لا يتم صلح بين الفريقين . وقد حملوا بالفعل ليلا على جيش عائشة وما تعالى النهار حتى كان الفريقان قد اشتبكا فى وقعة دامية ولم يكد النهار يتصرم حتى كان جمل عائشة

عساكر طائفة من شعره الجميل . وبذلك انتفى ظن بعض أهل العلم أن كتاب الأدب والمروءة هو لصالح بن عبد القدوس بل هو لرجل عربى دمشقى ينسب الى لخم من أتباع التابعين ومن أساتيذ عالم الأمة الجاحظ

ومثل هاته الهنات المعدودة لا تقدح فى كتاب طويل وقع فى خمسمائة صفحة ، الله أعلم كم قاسى ناشره من المتاعب حتى استخرجه من خطوط قديمة سقيمة . وليس لنا بعد هذا إلا الشكر نقدمه للأستاذ شاكر على عنايته وتجويده

محمد كرد على

قد عقر وأخذت عائشة وانتهت الوقعة . ولعمرى إن جيشاً رشق كله أو بعضه بالسهام جملا ساعة واحدة لحرى بأن يحيل الجمل كالقنفذ ، ولا يقتضى الأمر سبعة أيام !

ومن الخطأ الجسيم ما وقع فيه المؤلف عند ما أراد أن يبدى رأيه فى خروج عائشة وطلحة والزبير على على ، فهو يقول فى ص ٣٧٢ « نرى أنه لا مبرر لعمل طلحة والزبير وعائشة مادام للأمة إمام ينفذ الأحكام ويقيم الحدود ولاسيا وقد وعدهم على ابن أبى طالب بالنظر فى أمر عثمان والبحث عن قاتليه والقصاص منهم عند ما تستقر الأمور . على أننا نرى من جهة أخرى أن مجرد قبول على فى جيشه أعوان ابن سبأ الذين قتلوا عثمان فى الوقت الذى يطالب الناس فيه بدمه كاف لأن تحوم الظنون حوله وتبرر اتهامه بالاشتراك فى دمه » فالمؤلف ينظر هنا الى كل من الفريقين من وجهة نظر الآخر ، وقد خرج من الموضوع ولا رأى له على التحقيق . والوضع الصحيح للمسألة هو ألا مبرر مطلقاً لخروج عائشة وصاحبيها ، وأما على فلعل أصدق وصف له فى الفتن التى اضطر الى خوض غمارها أنه كان على اخلاصه مغلوبا على أمره .

ويقول المؤلف فى هامش ص ٤٥٠ تعليقا على كلامه على ضرب الحجاج الكعبة بالمجانيق : « لم يرد عبد الملك بن مروان أن يحط من شأن الكعبة وإنما اضطر الى قتال ابن الزبير فحدث ما حدث من غير قصد . وذلك أن الحجاج لما نصب المجانيق على الكعبة جعل هدفه هذه الزيادة التى زادها ابن الزبير فى الكعبة ، إذ كان الأمويون يعتبرون ذلك بدعا فى الدين » وهذا تخيل عجيب للحال ، فان مجرد استحلال القتال فى الحرم فضلا عن رمى الكعبة بالمجانيق عمل ينطوى فى نفسه على حط كثير من شأن الأمكنة المقدسة من غير نزاع . على أن الأمر كان أمر سياسة قبل كل شىء وبنو أمية كانوا إذا تعارضت المصلحة السياسية وأى اعتبار آخر رجحوا جانب المصلحة السياسية كائنا ما كان ذلك الاعتبار الآخر ، وتاريخهم كله يشهد بذلك . وقد يكون من المضحك أن يقال إن الحجاج جعل الزيادة التى زادها ابن الزبير فى الكعبة هدفا لمجانيقه ! أفما كان من الممكن الانتظار حتى تضع الحرب أوزارها ثم تنقض الكعبة وتبنى على أسسها القديمة ؟ ثم هل كانت هذه الزيادة متميزة عن سائر بنية الكعبة بحيث يمكن نقضها دون هدم الكعبة ؟ كلا ثم كلا ! لقد كان الهدف الحقيقى للمجانيق هو ابن الزبير نفسه ، ولما جعل ابن الزبير الكعبة حائلا بينه وبين المجانيق ضربت الكعبة .

ويقول المؤلف فى ص ٤٧١ وقد استعرض أشهر فرق الخوارج فى العصر الأموى : « وإن الناظر الى مبادئهم ليجد أنهم اشتطوا جميعاً فى الحكم على مخالفيهم حتى ساووا بينهم وبين الكفار عبدة الأوثان » وهذا الحكم على إطلاقه غير صحيح فهو إن صدق على بعض فرق الخوارج كالأزارقة لا يصدق على بعضها الآخر كالأباضية

ومن الخطأ الجسيم الذى وقع فيه المؤلف متابعته مؤرخا متوسط المكانة التاريخية هو السيد أمير على الهندى فى الكلام على نظام الامارة على البلدان فى العصر الأموى . يقول المؤلف نقلا عن هذا المؤرخ : « إن هناك نقصا قد تطرق إلى النظام الادارى فى عهد بنى أمية وجر إلى أسوأ العواقب فيا بعد . وذلك أنه كان يفرض على ولاة الأقاليم الاقامة فى حواضر ولاياتهم . أما فى عهد الأمويين فقد أصبحت ولاية الولايات تسند الى بعض أفراد البيت المالك والى كبار رجال البلاط فكانوا يبقون فى دمشق ويعينون من قبلهم رجالا يقومون بحكم الولايات نيابة عنهم . وكان من أهم أغراض هؤلاء الأمراء على حساب بيت المال ، وإرضاء هؤلاء الولاة بما كانوا يدرونه عليهم من الأموال » ونبادر الى القول بأن هذا النقل غير دقيق فالسيد أمير يؤرخ النقص الذى تطرق الى النظام الادارى من عهد يزيد بن عبد الملك بن مروان أى من عام ١٠١ هـ فى حين أن كلام الناقل يجعل تطرق النقص منسحبا على العصر الأموى كله

ومع ذلك فكلام السيد أمير على لا ينطبق على الواقع ، فانه إذا كانت الولاية على الأمصار قد أسندت فى بعض الأحوال إلى أمراء من بنى أمية كمسلمة ومروان بن محمد فان ذلك إنما كان لما عرفوا به من الكفاية الممتازة لا لقرابتهم من الخلفاء . ثم إنه لم يكن لبنى أمية بلاط بالمعنى الصحيح يولى كبار رجاله على الأمصار كما أن الأمراء لم يكونوا يقيمون بالعاصمة ويستنيبوا غيرهم على الأمصار ، إنما كانوا يقيمون فى حواضر الأقاليم نفسها .

هكذا كان خالد القسرى أمير العراق ، ونصر بن سيار أمير خراسان وحنظلة بن صفوان أمير مصر .. وإذا انتفت الاستنابة فلا نيابة ولا إثراء ولا رشوة . ولا شك أن السيد أمير على كان يفكر وهو يكتب هذا الكلام فى نظام الولاية على الأقاليم فى العصر العباسى الثانى عند ما غلب الأتراك على الدولة العباسية ، وهو خلط لا مبرر له

ويتكلم المؤلف (ص ٥٧٦) على نظام «العدول» فى معرض الكلام على نظام القضاء فى عصر الخلفاء الراشدين وبنى أمية فيقول « وقد دعت سنة التقدم والارتقاء إلى اتخاذ الشهود (المحلفين) حين فشت شهادة الزور ، إذ جرت العادة أن تقبل شهادة من يتقدم لأدائها ، سواء أكان ممن عرف بالخير أو بالشر . فقضى النظام الجديد بتعيين شهود عدول ، عرفوا بحسن السمعة والفقه ، فصاروا من هيئة المحكمة ، يعمل برأيهم القاضى فيما له علاقة بالتقاضيين

وكان من اختصاصاتهم أيضا الشهادة على ما يصدره القاضى من الأحكام وانه غير مخالف لأحكام الشريعة الاسلامية » لا شك ان المؤلف تناول هذا الموضوع لاعتقاده أن نظام العدول وجد فى العصر الذى اتخذه موضوعا لكتابه . وهو اعتقاد خطأ فأول ما سمع عن نظام العدول انما كان زمن الرشيد أى فى الدولة العباسية (انظر كتاب تاريخ القضاء فى الاسلام ص ١٣٢) ثم ان كلام المؤلف لا يجلو هذا النظام على حقيقته وفيه تخليط كثير (راجع الكتاب المذكور)

ويقول المؤلف فى ص ٦٢٧ وهو يتكلم على الجامع الأموى بدمشق : « وقد تأنق الوليد فى بناء هذا المسجد حتى قيل انه أنفق على عمارته خراج دولته سبع سنين وما ذلك إلا ليتقرب إلى الله بهذا العمل الدينى الجليل » . والمؤلف ينقل هنا عبارة المستشرق فون كريمر ، وفون كريمر يعتمد على ابن الفقيه . ووجه المبالغة غير المعقولة فى تقدير نفقات الجامع ظاهر . وكان ينبغى العدول عن رواية ابن الفقيه والأخذ برواية أخرى متواترة قال بها الاصطخرى وابن حوقل والمقدسى . ومؤداها أن النفقة استغرقت خراج الشام وحده سبع سنوات

***

وبعد فلو أردنا استقصاء الأغلاط التاريخية الواردة فى كتاب « تاريخ الاسلام السياسى » لطال الأمر . فنكتفى بهذا القدر . ونختم كلمتنا اليوم بايراد أغلاط جغرافية جرى بها قلم المؤلف

فبلدة (صحار) تكتب بالصاد المهملة لا بالسين كما كتبت على خريطة جزيرة العرب الواردة فى أول الكتاب ، وبلدة عينتاب تكتب بالياء المثناة بعد العين (انظر نفس الخريطة) ، وإذا أريد تعيين وادى أوطاس فلا يقال انه بين مكة والبصرة (ص ٣١) فالتعيين على هذا النحو وعدمه سواء . ولا يقال فى تحديد ملك الغساسنة « انه كان حول دمشق وتدمر . وكانوا يجولون فى الجهات الجنوبية لدمشق وخاصة لبنان وفلسطين والبلقاء وحوران » فماذا بقى للروم من الشام (ص٥٦) . ولا يقال ان الطبيعة وهبت نهر اليرموك أسراراً وألغازاً (ص ٢٨٩) ، وإلا فما تلك الألغاز والأسرار ؟ ومن أقبح الخطأ أن يقال ص٣٣٥ « وقد أنشأ معاوية أسطولا حارب البيزنطيين حتى وصل إلى عمورية فى آسيا الصغرى كما استولى على جزيرتى قبرص ورودس » فعمورية لا تقع على البحر ولكنها فى صميم آسيا الصغرى . كما أن هرقلة ليست واقعة على البحر الاسود ولكنها فى شرق آسيا الصغرى مما يلى منطقة الثغور الاسلامية . (الخريطة ص٢٧٤) ثم ان خريطة الأندلس ملأى بالخطأ والتحريف

مؤرخ